ترتُوف

أشخاص المسرحية

السيدة بَرْنال : والدة أُورْكون.
أُورْكون : زوج أَلْمير.
أَلْمير : زوجة أورْكون.
داميس : إبن أُورْكون.
مرْيان : إبنة أُورْكون، وحبيبة فالير.
فالير : حبيب مرْيان.
كليانْت : زوج أخت أُورْكان.
تَرْتوف : منافق يتظاهر بالتقوى.
دُورين : مرافقة مرْيان.
لُوَيّال } : رقيب في الجيش.
ضابط أَمن }
فليبوت : خادمة السيدة بَرْنال.

الأحداث تجري في باريس

الفصل الأول

المشهد الأول

السيدة بَرْنال، وفليبوت خادمتها، وأَلْمير، ومرْيان، ودورين، وداميس، وكليانْت

السيدة بَرْنال : هيا، يا فليبوت، نتخلّص منهم.

أَلْمير : أراكِ تسرعين الخطى بصورة لا تمكّنني من تتبُّع سيرك.

السيدة بَرْنال : دعكِ من المجاهَدَة، يا كنّتي، ولا ترافقيني أكثر ممّا فعلتِ، فلستُ بحاجة اليكِ.

أَلْمير : عليّ واجب لا بدّ لي من تأديتخ نحوك. ولكن، يا أمي، لماذا تخرجين هكذا باكراً ؟.

السيدة بَرْنال : لا يسعني ان أتحمّل كل هذه المشاكل. اذ لا أحد يهتم براحتي. وها أنا أُغادرك غير مسرورة، لأني في كل القصص أراني مغبونة، ولا يحترمني أحد، ما دام الجميع يتكلّمون هنا بصوت عالٍ والفوضى ضاربة أطنابها عندنا.

دُورين : إذا ...

السيدة بَرْنال : أنتِ، يا صديقتي، ابنة تابعة غير متبوعة. ولسانك الطويل يَنِمّ عن وقاحتك، وتتدخّلين كثيراً بما لا يعنيكِ، لمجرّد فرض رأيك.

داميس : ولكن ....

السيدة بَرْنال :أنتَ، يا ابني، شاب أحمق. وأنا جدّتك لا أتردّد في مصارحتك بذلك. لقد نبّهتُ والدك ألف مرة الى إنك تتّخذ دائماً موقف الولد المزعج. وهكذا لا ينوبه منك سوى وجع الرأس والعذاب.

مرْيان : أظنّ ...

السيدة بَرْنال : يا إلهي، كم أنتِ مسالمة، وكم أنتِ لطيفة. لكنك لا تتوفّقين في إصابة هدفك. ليتك تتذكّرين هول المآسي التي تنطوي عليها المياه الهادئة. وهكذا تتصرّفين بطريقة اعتباطيّة لا تؤمَن عقباها.

ألْمير : لكن، يا أمّاه ...

السيدة بَرْنال : لا، لا تستائي، يا كنّتي. فإن تصرفك غير سليم، وعليك ان تكوني في نظر أهلك قدوة صالحة تُحتذي. أؤكّد لك ان المرحومة والدتك كانت أفضل منك بما لا يُقاس. فأنت مسرفة، وهذا ما يغيظني كثيراً ولا أغفره لكِ. ها أنتِ، ترتدين ألْبسةً تليق بالأميرات. لا أنكر أنك تبغين بذلك إرضاء زوجك، يا كنتي، لكنه هو لا يتطلّب منك هذه الزينة المبالغة.

كليانْت : لكن، يا سيدتي، لا بدّ ...

السيدة بَرْنال : أمّا أنتَ، يا حضرة صهري العزيز، فأنا أقدّرك وأُحبّك وأُكرمك، لكن، ولو كنت كإبني، أرجوك أن لا تدخل بيتي. فأنتَ لا تكفّ عن وعظ الناس بحِكَم سديدة، أنت لا يتقيّد بها. بينما أنا أصارحك ولا أُلوكُ الكلام الذي أُصرّ على اسماعك إياه، كما يفرضه عليّ طبعي الحرّ.

داميس : صاحبكِ ترتوف المنافق سعيد بون شكّ.

السيدة بَرْنال : هو رجل خيْر يجب الاستماع الى أقواله، ولا يسعني أن أرى مهووساً نظيرك يخاصمه بدون أن أتألّم واستشيظ غضباً.

داميس : ماذا تقولين ؟ أترضَيْن بأن ينتقدنا مراوغ مثله يغتصب السلطة ويستبدّ بدون أن نتمكّن من لومه، كما هو حال هذا المتشامخ علينا ؟.

دُورين : إذا أصغى الانسان الى حِكَمه وصدّقها، لا بدّ له من ان يمتنع عن ارتكاب الجرائم، لأن هذا الغيور على الفضيلة يراقب كل أفعالنا.

السيدة بَرْنال : وما يراقبه، يراقبه جيداً. وهو يظنُّ أن يقود سواه الى درب

الجنّة. وبما أن ابني يحبّه عليكم أن تكرموه أنتم أيضاً.

داميس : لا، يا أمّاه، هو ليس كالأب الحنون الذي يريد الخير لجميع أولاده. وأنا أخدع نفسي إذا تحدثت عنه بطريقة أخرى. لذا ترينني استشيظ غيظاً واخشى أن اتوه في مجاهل هذا الدجّال.

دُورين : نعم، سلوكه يزرع الشكوك في النفوس لأنه نكرة مجهول يحاول أن يتربّع على عرش المبرّات. بينما هو لصّ حقير خسيس النوايا. يوهم الناس بأنه يلبس مِسْح التوبة وهو اكبر المحتالين. يدّعي السيادة والكرامة وهو أغبى العبيد السفلة.

السيدة بَرْنال : أشكرك على تأييد وجهة نظري بفضح مآربه الوضيعة.

دُورين : أجل، هو يعتبر ذاته قدّيساً أمامكم، ولا يفيض باطنه في الواقع إلّا لُؤماً ونفاقاً ومراءاة.

السيدة بَرْنال : هذا لسان حال جميع من خبروه.

دُورين : أمّا أنا فلا ثقة لي به البتّة، مهما تظاهر به من أمانة وإخلاص.

السيدة بَرْنال : وأنا أجهل حقيقة هذا الخادم الأحمق الذي يدّعي انه سيّد خطير. فأنتم لا تنوون له الشرّ ولا تصدقونه، لأنه يكشف لكم جميعاً حقيقتكم، ما دام قلبه ينفر من الذنوب، وهو لا يسير إلّا في الدروب المستقيمة.

دُورين : ولكن لماذا منذ بعض الوقت، لا يريد معاشرتكم ؟ وهل تغضب السماء لزيارته المشرّفة حتى يضجّ هكذا بصخب ؟ وهل من سبيل للتفاهم فيما بيننا ؟ أظنّ أنه يغار منك، يا سيدتي.

السيدة بَرْنال : أُصمتي، وفكّري بما تقولين. ليس هو وحده من يشجب هذه الزيارات. والشاهد على ذلك كل ما تتشامخين بواسطته على هؤلاء الناس، اي كل هذه العربات المتزاحمة على بابك وكل هؤلاء الخدم المنشغلين بإبراز وجاهتك المزعجة في هذا الجوار. أريد أن أعتقد أنهم ليسوا سوى مظاهر خدّاعة كالسراب. على كل حال، أَلْسِنَة عديدة تلوك سمعتك. وهذا ليس بالامر الحَسَن.

كليانْت : هل تريدين، يا سيدتي، أن لا يكلّم أحدنا الآخر ؟ وهذا في

الحياة مكروه ومذموم. فلو أنْصَتْنا الى الأقاويل المغرضة لتحتمّ علينا ان نستغني عن أصدقاءنا بسبب ما يبلغ سمعنا من نذالة أحاديثهم. وعندما نصمّم على فعل ذلك، هل تضطر الألسنة الصديقة الى الصمت ؟ إعلمي أن لا حدود للنميمة، فعلينا أن لا نُعير بذيء الكلام اذناً صاغية، وان نجتهد لنعيش ببراءة، وندع الثرثرة تختنق في حناجر النمّامين.

دورين : جارتنا « دَفْنَة » وزوجها أُوَلَيْسَا ممّن يغتابون سُمعتنا باطلاً ؟ وهما سيّئا السلوك الى درجة تستدعي الهزء بهما، لأنهما دائماً اوائل الاشخاص الذين ينتهزون الفرصة لذمّنا وتحقيرنا.

السيدة بَرْنال : كل حججكم باطلة لأننا نعلم أن « أُورانْت » امرأة مثاليّة وكل مساعيها تهدف الى عمل الخير، ومنها فهمت أنها لم تَنْجُ مع ذلك من الألْسِنة القارصة.

دُورين : هذا مَثَل رائع لأن هذه المرأة فاضلة. لا أنكر أن نظرتها الى الأمور صارمة. لكن عمرها يشفع بغيرتها على عمل الخير. وكلنا نعرف أنها حريصة على إبقاء صفحتها بيضاء كالثلج، وأنها لا تألو جهداً في سبيل كَسْب القلوب، وأنها جديرة بكل ما تتمتّع به من صفات حسنة. لكنها عند مشاهدتها ما يتبادله المحيطون بها من قُبَل، وهم يميلون الى التخلّي عنها، وصرْف النظر عن نتائج ضعفها، تغضّ الرف عن عقوقهم وتقاوم الإستسلام بعد القلق الذي ساورها وترفض قساوة النساء المتعاليات وعتبهن الخاطئ، ولا تجهل مساوئ الناس المتوارية وراء الخداع والرياء. وهي مقتنعة بأن التغاضي في هذه المواقف إثم اكثر من ان يكون ثواباً وجزاءً.

السيدة بَرْنال : هذا هو ما تستحقّينه من روايات غريبة لإرضاء غرورك، يا كنّتي. لذا مع أني أُفضّل في ضيافتك أن ألازم الصمت، وأنتِ لا تنقطعين طوال اليوم عن الثرثرة، أراني مضطرة الى التكلم عندما يأتي دوري لأقول لك : إن ولدي لم يكن عاقلاً باستضافة هذا الشخص الوَرِع في بيته، كأن السماء أرسلته اليه بُغية إصلاح حال كل من ضلّ سواء السبيل. وأن خلاصكم من الهلاك المحتّم يقتضي الإصغاء الى نصح لضمان خيركم وسلامكم. هذه الزيارات والحفلات والاحاديث هي كلها من وحي ابليس.

فهنا لا يسمع المرء اقوالاً تدل على التقوى، لأنها بأجمعها لعنات وادّعاءات باطلة ترذل خِيَار البشر، الأمر الذي يزعج أصحاب الضمائر الحيّة. في الحقيقة هذا برج بابل، بل جحيم لا يُطاق. كل إنسان يتصرّف على هواه، ويهذي على غير هدى. أوَلاَ تسمع هذا المتبجِّح يتمتم بالتفاهات ؟ إذهبوا الى المهووسين فيما بينكم ليُغرقوكم بالضحك والقهقهة. وأنا بدون أن أُودّعك، يا كنّتي، لا أُريد أن أزيد حرفاً على ما قد صرّحتُ به. واعلمي أني لن أعود اليك إلّا عندما يتغيّر هذا الوضع من الأساس. (تصفع فليبوت) هذا نصيبكِ، أيتها الواعظة، وسأعرف كيف أفرك لك اذنكِ عند اللزوم. هيا، سِيري أمامي فوراً.

المشهد الثاني

كليانْت، ودورين

كليانْت : لا أريد أن أذهب الى هذه المرأة، خوفاً من أن تشتمني وتشاجرني ...

دُورين : حقًّا، من المؤسف أن لا تسمعك وأنت تنطق بهذه الكلمات. وإلّا قالتْ عنكَ كل ما يرضيك، ويدعك تقابلها بأحسن التمنيات.

كليانْت : مع انها حنقت على ترتوف ونعتته بأشنع الأوصاف..

دُورين : أجل، كل هذا لا يليق بابنها، ولو سمعتَها لصرختَ : هل هناك أقبح من هذه السماجة. لقد أرهقتْ أعصابنا لأنها، لإرضاء نزوتها، لم تحجم عن إفراغ جعبتها من الإهانات بجسارة نادرة. ولكنها أضحت كالمغفّل المتهور منذ أن علمتْ بموقف ترتوف العنيد. لقد اعتبره إبنها كأخيه وأحبّه اكثر من أمه وابنه وابنته وزوجته. وجعله امين سرّه الوحيد ومستشاره في اعماله يدلّله ويعانقه ويحنو عليه اكثر من أعزّ صيقةٍ حميمة. هذا الذي يرغب في تصدُّر المائد، ويزدرد المآكل بمقدار ما يتناوله ستة اشخاص،

وينتقي أطيب المآكل ويتدبّر أمره لكي يتنازل له عنها الآخرون، وإذا « تدشّى » يحبّ ان يقول له الجميع « رعاك الله ». (هنا تتكلّم إحدى الخادمات، وتواصل دورين قولها) أخيراً هو المهووس وحده يظنّ أنه محور كل ما في الحياة، وأن البطل، ويُعجَبَ ويَتباهى به الجميع، ويؤتى على ذكره في كل مناسبة. أبسط أفعاله تبدو له كمعجزات، ويُعتبر كافّة كلماته كأنها خُطَب رنّانة. وانه هو الذي يعرف جيداً كل الأشخاص الذين يحتالون عليه ويتلذّذون بالسخرية منه، فلا ينقطع عن التنديد بهم، ولا يتردد عن تلقينهم الدرس تلو الدرس كلما سنحت له الظروف بذلك. ثم ينتقل إلينا ليعاملنا نظيرهم باستعلاء وشموخ، ويلقي علينا مواعظه كأنه نبيّ قدّيس ونحن من أتابع ابليس.

المشهد الثالث

ألْمير، ومريان، وداميس، وكليانْت، ودورين

ألْمير : أنتَ سعيد، لأنك لم تأتِ لتستمع الى الحديث الذي خاضته حماتك عندما كنّا قرب الباب. لكني شاهدت زوجي بدون أن يراني. وها أنا صاعدة الى فوق لأنتظرَ مجيئه.

كليانْت : أمّا أنا فأنتظره هنا، لأن الضجّة في هذا المكان أقل ممّا في سواه. وأودّ أن أراه لأُلقي عليه السلام فقط.

داميس : ألْمِحي له قليلاً الى زواج أختي، لأني أظن أن ترتوف يعارضه نوعاً ما. وسيُجبر والدي على المواربة واللّف والدوران، وانتم لا تجهلون كم يهمني أن أتدخّل في الأمر، وإنْ كانت شقيقتي وفالير غاطِسَيْن في هذه المشكلة المعقّدة. لأن أخت هذا الصديق عزيزة على قلبي، وإذا اقتضت المسألة ...

دُورين : ها هو يدخل.

المشهد الرابع

أُورْكون، وكليانْت، ودورين

أُورْكون : نهارك سعيد، يا أخي.
كليانْت : كنت على أُهبة الخروج، ويسرّني أن أراك عائداً. فالبرّيّة الآن غير مزهرة تماماً بعد، كما أتمنّى.
أُورْكون : يا دورين ... أرجوك أن تنظري بعين العطف الى زوج أختي، وان تخفّفي الهمّ عني بما تزوديني به من أنبائك السارة. أحمد الله على أنّ كل الأمور في هذَيْن اليومَين إنقضت على خير. قولي لي : ماذا يجري هنا ؟ وكيف حالك الآن ؟.
دُورين : لقد انتابت الحمّى السيدة يوم أمس ولازمتها حتى المساء ورافقها صداع شديد لا يُطاق.
أُورْكون : وماذا حلّ بصاحبنا ترتوف ؟.
دُورين : ترتوف يتمتّع بصحة جيدة، وهو ممتلئ شحماً ولحماً، وخدّاه ورديًا اللون.
أُورْكون : مع ذلك، مسكين هذا الرجل.
دُورين : مساءً داهم السيدة قرفٌ غريب، ولم تستطع على المائدة أثناء العشاء أن تضع لقمة على فمها، وقد أرهقها الصدّاع.
أُورْكون : وترتوف ماذا دهاه ؟.
دُورين : لقد تعشّى وحده أمامها، وبكل خشوع إلْتهم حجلَين كاملَيْن مع نصف فخذٍ مفروم.
أُورْكون : يا له من مسكين قليل الشهيّة حقًا.
دُورين : إنقضى الليل بطوله ولم يغمض للسيدة جفن. لأن الحمّى لم تدع لها مجالاً كي تغفو لحظة. فسهرنا الى جانبها تقريباً حتى طلوع الفجر.
أُورْكون : وترتوف ؟ أرجوك أن تُعلميني ماذا فعل ؟.
دُورين : غلب النعاس عليه فانتقل من غرفة الطعام الى حجرة النوم، وفي سريره الدافئ نام حالاً بدون أي انزعاج حتى صباح الغد.

أُوزْكون : مسكين هذا الرجل، مسكين.
دُورين : في آخر الأمر، نزوًّ عند إلْحاحنا رضيت السيدة بأن تُفْصَد، فما عتّمت أن ارتاحت.
أُوزْكون : وترتوف، كيف تصرّف ؟.
دُورين : استعاد شجاعته كالمعتاد، وبدون اي قلق عوّض للسدة ع ن الدم الذي فقدته بالفصْد. وأثناء تناوله طعام الإفطار تجرّع اربعة كؤوس من الخمر.
أُوزْكون : في الحقيقة، مسكين هذا الرجل المثالي.
دُورين : اخيراً تحسّنت صحّة الاثنين معاً. ها أنا ذاهبة لأُنبئ السيـدة باستفسارك عن نقاهتها وتماثلتها الى العافية.

المشهد الخامس

أُوزْكون، وكليانْت

كليانت : هي تسخر منك وتضحك عليك. وبدون أن أقصد إغضابك أسألك بكل نزاهة، هل لقيت في حياتك نظيره صاحب أهواء خبيثة ومزاج سَمِج ؟ وهل وجدت رجلا مثله يتمتّع بمزيّةٍ تنسيك كل ما عدا شؤونه الخاصة به، وتجعلك لا تهتمّ باصلاح أحوالك البائسة وإصلاح محيطك أيضاً ؟.
أُوزْكون : رويدك، يا زوج أختي. أنت لا تعرف شخصيّة من تتكلّم عنه.
كليانْت : أأنت تقول إني لا أعرفه ؟ ولكن، لكي تعلم حقيقة هذا الرجل ...
أُوزْكون : سيسرّك، يا أخي، أن تعرفه. ولن يكون لدهشتك من حدود. هو رجل .. رجل ... أخيراً هو رجل يُتقن جيداً علومه، ويتذوّق السلام بعمق، وينظر الى الناس كأنهم جهلاء. نعم، تراني أتحوّل فوراً الى شخص آخر عندما أتكلّم عنه. لأنه يحول دون عطفي على أي مخلوق سواه، ويقصيني عن كل صداقة، ويجعلني أنظر الى أخي واولادي وامي وزوجتي بلا مبالاة، وأن لا أكترث لهم وأهتمّ بمصيرهم.
كليانْت : هذا ما يحمله بين ضلوعه من العواطف الانسانية.

أُوزْكون : لو رأيتَ كيف عرفتُه لكنتَ صادقته بلا إمهال. فكل يوم يُصلّي بخشوع وهو يتقرّب اليّ بوداعة ويستقطب أنظار الجميع بما يظهره من التقى، والحسرة على ما بدر منه من تقصير في الواجبات. وعندما أخبرني صديق بأنه يحتاج الى المال بادرت الى مساعدته بكل تواضع وأعطيته بعض المال، فأصرّ على ردّ جميلي قريباً، وقال لي : يكفي نصف هذا المبلغ، لأني لا أستحقّ شفقتك. غير أني رفضت ان أسترد ما منحته اياه. فأسرع الى توزيعه على الفقراء تحت نظري. ومنذ ذلك الحين إنفرج ضيقه وازدهرت أحواله، وإذا به يستردّ كل ما فقده من اموال، وراح يهتمّ بزوجتي، ثم نبّهني الى الناس الذي كانوا يغمزونها بعيونهم، وأخذ يغار عليها اضعاف غيرتي أنا. ولن تصدّقوني اذا قلت لكم الى أي مدى بلغت به الغيرة، اذْ راح ينسب الى ذاته كل شاردة وواردة تحصل، وبات أتفه أمر يلاحظه يُدخل الشك الى نفسه حتى دفعته جرأته الى الشكوى من مشاهدته بعوضة وهو يصلّي فقتلها من شدة غيظه لدى مضايقته إياه وعدم تحمّله طنينها.

كليانْت : صدّقني، أنتَ مهووس، يا أخي. أتريد أن تسخر مني بسردك لي خبراً تافهاً كهذا ؟ فماذا تقصد بهذا الإطناب ؟.

أُوزْكون : من هذا الحديث تَشْتَمّ رائحة تهتّكه، يا أخي. فلا بدّ من ان تكون متطرّفاً، وأنا أدْرَى الناس بما يتنازعه من سوء النيّة.

كليانْت : هذا حديث ساذج يطلقه كل من يريد أن يشمل الجهل محيطه. أنا اعتقد ان الاستهتار انتقل الى كل من له عينان ولا يبصر، ويمتنّع عن الالتفات الى مثل خزعبلات هذا المحتال الذي لا يخاف الله ولا يحترم المقدّسات. إعلم أن احاديثك عنه فقدت كل تأثير عليّ. وبتُّ نظير العديدين غيري، لا آبه الى تصنّعه وادّعائه الصلاح. فهناك مئات الأتقياء المرائين، والادعياء المخادعين الذين لا يدرون ماذا يفعلون والى أين هم صائرون. فالمؤمنون الحقيقيون هم الذين لا يبغون اثارة الضجة حولهم، ولا ينتحلون الفضائل بنفاقهم ومظاهرهم الغشّاشة. وشتّان بين التقوى والمراءاة، وهيهات أن يلتقي الصدق وكذب الدجالين على صعيد واحد، والشبح والشخص الاصيل، والعملة المزيّفة والنقود الأصليّة. صدّقني إنّ أغلبَ الناس برعوا

في المحاباة، لكننا لا نراهم على جليّة طبيعتهم. فالعقل بالنسبة اليهم محدود الأفق، وأنبل الغايات غالباً ما تَفْسُد إذا أُريد استغلالها في غير غايتها الصحيحة. فإن كان لك أذن صاغية فلتسمعْ.

أُورْكون : اجل، أنت بدون شكّ مِلْفان وقور. وكل علوم الدنيا تدين لك بالمهارة وسعة الاطلاع. لأنك العليم الحكيم الوحيد، بل انت فلتة زمانك ونابغة عصرك وأوانك. وكل ما عداك في محيطك غارق في الجهل والغباء.

كليانْت : انا لست مِلْفاناً مُميّزاً ولا أحصُر معارِف الدنيا في دماغي. لكني بكلمة وجيزة أدرك، من جملة معلوماتي، اني أُعرف الخطأ من الصواب. وبما اني لا أعلم الى أي نوع من الأبطال ينتمي التقيّ الكامل الصفات، ليس عندي انبل وأروع من الورع الحقيقي، ولا أبْشع ممن يشبه القبور المكلّسة، خارجها ناصع البياض، وفي باطنها أنْتَن العَفَن. على هؤلاء المشعوذين المضلّلين ان يُقلعوا عن تدنيسهم ما يتباهون به من المظاهر الخدّاعة التي يتاجرون بها، وهم يتوسّلون بذلك كَسْب الكرامة على حساب من يتهمونهم بالدعارة التي يمارسونها هم أنفسهم ليغنموا ما يطمعون به من جاه وثراء. وهم يوارون رذائلهم وطمعهم تحت ما يدّعونه من العفّة وينتحلونه من الفضائل المزيّفة. فلا يتورّعون عن قتل الارواح وحتى الأجساد بواسطة أقدس ما يُجلّه ويبجّله الجميع. في عصرنا الحاضر، ياأ خي، كم من الأمثلة المجيدة تخفي وراءها الخزي والعار. أُنظرْ الى فطاحل الشهرة وأعلام الجهابذة نظرةً فاحصة، تبصرْ أن معظمهم أدعياء جبناء يتستّرون بمظاهر النبْل والشهامة لنيل مآربهم، وتدركْ ان الخاطئ يتشبّث بالأسف سطحيًّا على خطيئته لعلّه يستدرّ عطف الغيورين الصادقين. هؤلاء هم جماعتي، وهذا هو سرّ تصرفهم الغبي المشين. وهذا هو المثال الذي يغرّهم لمعانه كالسراب الخادع. في الحقيقة، صاحبك ليس من هذا النمط، لكن حُسْن نيتك يحملك على الإشادة بتفانيه المبطّن باللؤم لأن بريق دجله قد خَلَب نظرك.

أُورْكون : يا زوج أختي العزيز، أرجوك أن تصارحني : هل أفرغت جعبتك ؟.

كليانْت : نعم.

أُوزْكون : أنا في خدمتك (يهمّ بالخروج).
كليانْت : أرجوك أن تصغي اليّ، يا اخي، لأقول لك كلمة أخيرة. دع هذا الحديث عند هذا الحدّ. فأنت تعلم أن فالير بصفته صهرك قد استمد حديثه منك.
أُوزْكون : نعم.
كليانْت : وانت قد أفضْت في الكلام للوصول الى علاقة هكذا وثيقة.
أُوزْكون : لا أنكر ذلك.
كليانْت : لماذا اذاً تريد تأجيل إعلان النتيجة ؟.
أُوزْكون : لست أدري.
كليانْت : هل هناك فكرة معيّنة تجول في رأسك ؟.
أُوزْكون : ربما.
كليانْت : وهل تريد أن تُخِلَّ بتعهّدك ؟.
أُوزْكون : انا لا أقصد ذلك.
كليانْت : اذاً ليس من عقبة تقف في سبيل الوفاء بوعدك.
أُوزْكون : هذا يعود الى ...
كليانْت : هل تحتاج الى هذا التستّر لتعلن كلمتك ؟ لقد دعاني فالير الى زيارتك لخوض هذا الموضوع.
أُوزْكون : الحمد لله.
كليانْت : لكن ماذا أقول له ؟.
أُوزْكون : كل ما يرضيك.
كليانْت : عليّ قَبْلاً أن أعرف مرامك. فماذا ترغب ؟.
أُوزْكون : أن يتمّ ما يشاءه ربّك.
كليانْت : علينا أن نتصارح جدّيّاً. فالير هو من رأيك. هل تسانده أم لا ؟.
أُوزْكون : الوداع.
كليانْت : في سبيل حبّه أخشى أن نبوء بالخيبة والفشل. ولا بدّ من أن أُنبّهه الى كل ما يجري الآن هنا.

الفصل الثاني

المشهد الأول

أُوركون، ومَرْيان

أُورْكون : يا مريان.
مرْيان : نعم، يا أبي.
أُورْكون : إقتربي مني، فلديّ ما اخبرك به سرًّا.
مرْيان : عن ماذا تبحث ؟.
أُورْكون : (ينظر الى غرفة صغيرة) : هل من يستمع الينا ها هنا ؟ لأن هذا المكان معرَّض للمفاجأة. لكن يُخيَّل الي أننا في مَأْمَنٍ من شرّ كل دخيل. لقد عرفتك على الدوام، يا مريان، دمثة الأخلاق. وأنت كذلك عزيزة على قلبي.
مرْيان : أنا أقدّر محبّتك الأبوية، يا أحلى الآباء.
أُورْكون : قولك هذا الصادق، يا ابنتي، يبهج فؤادي. ولكي استحقّه منك كما يجب، عليك أن تجتهدي لإرضائي.
مرْيان : يسعدني أن أكون عند حسْن ظّنك بي.
أُورْكون : هذا ما ارجوه على الدوام. ما رأيك بضيفنا ترتوف ؟.
مرْيان : رأيي أنا ؟.
أُورْكون : نعم أنتِ. أصدقيني ما تفكرين به من نحوه.

مرْيان : يا للأسف، عليّ أن أقول فيه ما تريده أنتَ.
أُورْكون : هذا كلام حكيم. قولي لي اذاً، يا ابنتي، إنه شخص عالي المقام، وإنه قريب الى قلبك، وإنه لطيف، وتودّين أن اختاره زوجاً لك. ماذا تقولين ؟.
مرْيان : (تتراجع مدهوشة) : ماذا أقول ؟.
أُورْكون : نعم ماذا تقولين ؟.
مرْيان : أرجوك ...
أُورْكون : ماذا ؟.
مرْيان : ما هذه المباغتة ؟.
أُورْكون : ماذا أسمع منك ؟.
مرْيان : هل تريد أن أُعلن لك، يا أبي، أنه قريب الى قلبي، وأنه لطيف، وأودّ أن تختاره زوجاً لي ؟.
أُورْكون : طبعاً، إن قصدتِ ترتوف.
مرْيان : اقسم لك، يا أبي، إني لا أُحسُّ مطلقاً بمثل هذا الشعور. فلماذا تريد أن تُرغمني على التصريح بذلك زوراً وبهتاناً ؟.
أُورْكون : أرغب في جعل هذه الفكرة حقيقةً ملموسة. ويكفيك سروراً أني قرّرت إتمام ذلك لأجل سعادتك، يا حبيبتي.
مرْيان : ماذا تقول ؟ هل تريد يا أبي ؟ ...
أُورْكون : نعم، يا ابنتي. أرغب، عن طريق زفافك، جعل ترتوف من أفراد أُسرتنا. سيصبح قريباً زوجك، لأني قررت ذلك نهائياً. وحسب امنيتك، اريد. ...

المشهد الثاني

دورين، وأُوركون، ومريان

أوركون : ماذا تفعلين هنا ؟ حبّ استطلاعك دافع قوي، يا صديقتي، لكي تأتي وتسترقي السمع هكذا اثناء حديثنا.

دُورين : حقاً، أنا لا أعرف إن كانت هذه إشاعة تنطلق عن سابق تفكير وتصميم، أو هي مجرّد صدفة عابرة. غير أن هذا النبأ، حالما بلغني، إعتبرته محض هراء.

أُوزْكون : هل تظنّين أن المسألة لا تُصدَّق ؟.

دُورين : الى درجة أني لا أصدّق أيضاً حديثك أنت عنه.

أُوزْكون : أنا أعرف طريقة تجعلك تصدّقينه كأنه يقين لا يرقى اليه أدنى شكّ.

دُورين : نعم، نعم، أنتَ تقصّ علينا حكاية طريفة.

أُوزْكون : أنا أخبرك بما سيشهده الجميع قريباً بأمّ العين.

دُورين : هذا كلام لا أساس له من الصحة.

أُوزْكون : إنّ ما أؤكده لك ليس لعْب أطفال.

دُورين : لا تصدّقي ما يعلنه والدك. لأنه يمازحنا..

أُوزْكون : أؤكد لك ...

دُورين : مهما أكّدت، لن يصدقك أحد منّا في هذا الشأن الخطير.

أُوزْكون : لن أتمكنّ من كظم غيظي اكثر مما فعلت حتى الآن.

دُورين : واذا صدّقناك فهذا لن يكون من صالحك. ما قولك، يا سيدي، وأنت رجل عاقل، ولحيتك التي خطها الشيب تُضفي عليك الوقار، تريد أن ترتكب حماقة بل جنوناً.

أُوزْكون : أنتِ تسمحين لنفسك بالتطاول عليّ. وهذا طبعاً لا يرضيني، يا صديقتي.

دُورين : أرجوك أن تجاذبني أطراف الحديث بدون أن تستاء، يا سيدي. هل تريد أن تهزأ بالناس بتدبيرك هذه المؤامرة الوضيعة ؟ لن تكون إبنتك ضحية تزمّتٍ مبالَغ. هناك مواضيع أخرى يجب عليك أن تفكّر بها. ثم ماذا يفيدك مثل هذا الزواج ؟ وما الذي أغراك لإختيار مثل هذا الصهر اللئيم ؟

أُوزْكون : أُصمتي، واعلمي أنه لهذا السبب يُبجِّل ترتوف، إذ إنه ظل في بؤسه شريفاً، ولا بد من ارتفاعه لذلك فوق العظمة الأرضية بما أنه حَرَمَ نفسه من الاموال والأباطيل الماديّة. ومن جرّاء اهتمامه الزهيد بالمشاغل الدنيوية ترينه يتعلّق بالمباهج السماوية. غير ان إسعافنا يساعده على إيجاد

الوسائل الضرورية لاسترجاع أرزاقه، وحسب أحواله يُعتَبر رجلاً كريماً محترماً.

دُورين : نعم، هذا ما يدّعيه هو عن ذاته. لكن تشامخه لا ينسجم مع ما يتظاهر به من التقوى التي، على اساس الحياة المجردة المتقشّفة، يجب أن تتحلّى بالبراءة والنزاهة، بدون أن يتّكل كثيراً على عراقة حسبه ونسبه، بل على تواضعه وحرارة إيمانه التي تماشي طموحه. فلماذا يتمسّك بالتعالي والكبرياء ؟ هذا الحديث يجرح إحساسك. فلنتكلّم اذاً عن شخصه، ولندعْ نبْل أصله جانباً واصدقني هل تجد مناسباً إقتران مثل ابنتك برجل نظيره ؟ وهل تأمل من هذا الزفاف السعادة والهناء، عندما تضطر العروس الى قبول شريك حياتها مرغمةً ؟ جوهر القضية يكمن في أن يكون للعريس صفات كريمة تؤهّله لمنحها الوفاء والإخلاص كما تأمل. لأن بعض الازواج من طرازٍ مُعيّنٍ ليسوا جديرين بما على العروس أن تضعه فيه من ثقة غير محدودة، وإلاّ تعرضت الى شرّ المخاطر التي تنال منها إن أساءت الإختيار أو كانت غير راضية.

أُورْكون : لا أكتمك أنّ عليّ أن أعرف منها أسَاليب الحياة الهنيئة التي تهفو إليها.

دُورين : الأوْلى بك أن تتلقّي مني بعض الدروس في هذا الموضوع.

أُورْكون : دعينا من التلهّي بهذه التوافه، يا ابنتي. أنا أدرى الناس بما يجب عليّ أن أفعله كأب عطوف. لقد وعدت فالير بأن أزوّجه إياها. وقد فهمت أنه يميل اليك، مع أني أظنه متماهل قليل الإيمان.

دُورين : هل تريد أن يتودّد إليك مراوغاً، ويتظاهر بما ليس فيه حقيقةً ؟.

أُورْكون : أنا لا أطلب رأيك في هذا الشأن. واعلمي أني لست غبيًّا، وأني أجد فعلاً في هذا الزواج تحقيق أحلى امنياتها. وأنا على يقين بأن هذا العريس لا غاية له إلاّ إسعادها، وأنهما سيقضيان العمر كله متفاهمَيْن متحابّين، وأنه من جهته سيفعل كل ما يرضيها وما تأمل هي بأن يغدقه عليها من العطف والحنوّ..

دُورين : بينما هي، بعدم رضاها، ستدفعه الى الحماقة والهوس.

أوزْكون : ما هذا الكلام السخيف ؟.
دُورين : لا أتوقّع إلّا ما ستأتينا به الأيام حتماً، لأن فضيلة ابنتك، يا سيدي، في هذا الوضع غير المعقول، ستنقلب لا محالة الى لؤم وغباء.
أوزْكون : كُفّي عن مقاطعتي، والزمي السكوت، بدون أن تواصلي تدخّلك في ما لا يعنيك وما لا تدركين فحواه.
دُورين : أنا لا يهمّني إلّا مصلحتك وصالح ابنتك (تقاطعه وهو يلتفت ليكلّم ابنته).
أوزْكون : تطفّلك تعدّى كل الحدود. أرجوك أن تصمتي.
دُورين : لو لم أكن أحفظ لشخصك مودة فائقة لكنت ...
أوزْكون : أنا لا أطلب مودّة أحد.
دُورين : سأكرمك رغماً عنك يا سيدي.
أوزْكون : هذا جميل حقًّا.
دُورين : راحة بالك غالية عندي، ولا أطيق أن ينتابك أي غمّ أو نَدَم.
أوزْكون : ألاَ تريدين أن تلزمي السكوت أخيراً ؟
دُورين : ضميري لا يطاوعني على تركك تتمّم هذا الزفاف غير المرغوب.
أوزْكون : ستصمتين، أيتها الأفعى، وقد بلغت بك الوقاحة ...
دُورين : دورين : أأنت تحسب نفسك تقيًّا وَرِعاً وتستسلم الى الغضب ؟.
أوزْكون : أوركون : نعم، لأن صبري نفذ تجاه كل هذه الحماقات، وأنا مصمم على إسكاتك.
دُورين : ليكن ما تريد. واذا لم أنبس ببنت شفة، فهذا لا يعني أني غيّرت تفكيري.
أوزْكون : فكّري كما تشائين، ولكن قفي عند حدّك (يلتفت الى ابنته ويواصل كلامه). لا أريد أن أسمع أية كلمة أُخرى في هذا الموضوع. كفى، فأنا كرجل ناضج راجح العقل، قد قيّمْت جوانب هذه القضية، وأعرف جيداً ما نويت على إتمامه.
دورين : سأُجنّ، إن أنا سكتُ كما تطلب مني. (تصمت حين يدير رأسه).
أوزْكون : فضلاً عن أنّ ترتوف ليس رجلاً مستهتراً، أنا أعرف ما يتّسم به من الصفات الحميدة.

دُورين : لا أنكر أنه وسيم الطلعة. لكن هذا لا يكفي.

أُوزْكون : حتى إن لم ترَيْ فيه أية مزيّة حسنة، لا يسعكِ أن تنكري أنه موهوب (يلتفت اليها ويقف أمامها مكتوف اليدين).

دُورين : ها قد وصلتها هكذا جميع حقوقها. مسكينة، لو كنت أنا مكانها كصبيّة برسم الزواج، لما رضيت بتاتاً بأن أُجْبَر على قبول مثل هذا النصيب الرديء. وإنْ تمّ ما لا أرغب فيه، سأريه بعد الزواج ما تستطيع المرأة على كل حال أن تلجأ اليه من الحِيَل ووسائل الإنتقام.

أُوزْكون : وأنا أؤكّد لك أن حرفاً واحداً لن يتغيّر مما قد قررت الإقدام عليه.

دُورين : لماذا هذا الوعيد ؟ أنا لا أوجّه كلامي اليك.

أُوزْكون : لمنْ توجّهين إذاً حديثك هكذا بعناد ؟.

دُورين : أنا أخاطب نفسي.

أُوزْكون : جميل جداً. ولكي أعاقبك على وقاحتك، لا بدّ لي من أن أصفعك وألقّنك درساً لن تنسيه مدى العمر. (يستعدّ لصفع دورين، بينما هي تنتصب أمامه بقامتها الهيفاء، بدون أن تُحْري جواباً، ثمّ يتابع هو كلامه) عليك يا ابنتي أن تقنعيها باستجابة رغبتي وتنفيذ قراري ... يجب أن تدركي أن الزوج الذي ... اخترته لها ... لماذا لا تنطقين الآن ؟.

دُورين : لم يبق لديّ ما أقوله.

أُوزْكون : أمّا أنا فلي أيضاً كلمة اخيرة أُضيفها.

دُورين : لن يعجبني ما ستتلفّظ به حضرتك.

أُوزْكون : أجل، هذا ما أتوقعه منك.

دُورين : أُقسِم لك بأني لستُ حمقاء كما تظنّ.

أُوزْكون : أخيراً، يا ابنتي، لا بدّ لك من تحريضها على إطاعة أوامري وإعارة اختياري لها ما يستحقّه من الإهتمام والإذعان.

دُورين : (وهي تهرب) : أنا أزدري بالموافقة على الاقتران بهذا العريس المفروض.

أُوزْكون : (يحاول أن يصفعها ولا يصيبها) : حقًّا أنتِ يا ابنتي حظك تعيس وافكارك قاصرة. وأنا يصعب عليّ أن أعيش بصحبتك بعدما بدا منك من

نفور وعناد. اعتقد أني لن أستطيع أن أحيا بعد اليوم قرير العين وقد لمست ما تنطوي عليه نواياك من تمرّد وعقوق. لا بدّ لي من الخروج بعض الوقت لتنشُّق الهواء الطلق، لعلّي أستعيد أنفاسي التي كادت وقاحتك أن تخنقها.

المشهد الثالث

دورين، ومريان

دُورين : هل فقدتِ موهبة النطق، وهل وجب عليّ أنا أن اتقمّص شخصيتك وأقوم بدوركِ وأتولى الإجابة عنك ؟ هل بلغتْ بك قلّة الإكتراث الى درجة أن يُعْرَض عليك مشروع زواج سخيف وأن لا تردّي بكلمة واحدة لترفضيه ؟.

مرْيان : تجاه والد مستبدّ ماذا يسعني أن أفعل ؟.

دُورين : ما لا غنى عنه لدفع هذا التهديد الخطير عنك.

مرْيان : ماذا تقولين ؟.

دُورين : أفهميه أن قلبك لا يميل الى العريس المفروض، وأنك ستتزوجين أنتِ لإرضاء عواطفك وتلبية نداء حبّك. ولن تقترني أبداً بأي عريس يرضيه هو وحده. قولي لي، بما انك تتزوّجين أنتِ لا هو، ستقبلين بالرجل الذي يعجبك أنتِ لا هو. وإذا كان صاحبه ترتوف عزيز عليه لما يراه فيه من الصفات والجاذبيّة، فليتزوجْه هو بدون إبطاء.

مرْيان : لا تنسَيْ أن لوالدي عليّ حقوقاً، وأني لا أقوى على معاندته.

دُورين : لكن عليك أن تفكّري، وأن لا تنسَيْ أنتِ أن فالير قد أقدم على طلب يدك من ابيك. والآن، أصدقيني هل تحبينه حقاً أو لا.

مرْيان : أنت اليوم تظلمينني بسؤالك هذا يا دورين. وهل يسعك أن تطرحي عليّ مثل هذا السؤال ؟ وأنت تعلمين يقيناً ما يكنّه له فؤادي من وله ووفاء.

دُورين : لكنّي لا أعرف إن كان لسانك نطق حقاً بما يفيض به قلبك، وأن فالير فعلاً هو حبيبك المفضّل المختار.

مرْيان : مريان : قلت لك منذ هنيهة أنك تظلمينني بهذا السؤال. وأنت تعلمين مقدار هيامي وشوقي الى من أسر قلبي وملأ حبه حنايا ضلوعي.

دُورين : اذاً أنتِ متعلّقة به الى هذا الحد.

مرْيان : أجل لقد استحوذ على كل عواطفي ومشاعري.

دُورين : وعلى ما يبدو، إنه هو من جهته يبادلك هذا الوله.

مرْيان : لا شك في ذلك.

دُورين : وكلاكما تتوقان الى الارتباط قريباً بوثائق الزواج المبارك.

مرْيان : طبعاً، بلا ريب.

دُورين : فما رأيك بالعريس الذي يعرضه عليك والدك ؟.

مرْيان : أفضّل الموت على الرضوخ الى هذه الفكرة البغيضة.

دُورين : حَسَن جداً. هذا تصميم من قِبَلك لم أكن انتظره بهذه السهولة. وهل عليك أن تقبلي بالموت لتتخلَّصي من هذا المأزق ؟ دواء علّتك هذه سحريّ عجيب. وكلّما خطر ببالي مشروع ابيك أكاد أجنّ من اليأس، وانفجر من الغيظ.

مرْيان : يا الهي. ما هذا الكلام ؟ ماذا دهاكِ لكي تفقدي أعصابك إزاء مشكلتي العسيرة الحلّ ؟.

دُورين : أنا لا أتأثر بالتوافه، ولا يسعني السكوت عما يتهدّدك من شقاء، اذا لم تعمدي الى ردة فعل منقذة.

مرْيان : لكن، ماذا استطيع أن أفعل ؟ وأنا قليلة الجرأة والإقدام.

دُورين : لصيانة حبّك وهنائك، لا بدّ لك من التصميم والإصرار والجرأة.

مرْيان : قلبي المغرَم يفيض بالحب والحنان نحو فالير. أَوَلَيْس عليه هو أن يتشجع ويتقدّم الى طلب يدي من ابي.

دُورين : ولكن، ما هذا القول ؟ هل تعتقدين حقًّا، اذا كان والدك الرجل المستبدّ قد صمّم على مصاهرة ترتوف، أن مسؤولية تحقيق هذا الزواج الذي لا ترغبين فيه، تقع على حبيبك بسبب تقاعسه عن طلب يدك ؟.

مرْيان : غير أن رفض أبي وازدراءه بعريسي المفضّل، لن يغيّر حرفاً من عزمه، رغم ميلي الى غير من اختاره لي والدي. فهل عليبّ أن أخرج

عن حيائي الأُنثوي كابنةٍ مُحبّةٍ، وأن اكشف للناس عمّا يخالج قلبي من حب وشوق مكبوتين بسبب موقف أبي المتشبّث بمشروعه.

دُورين : لا، لا. أنا لا أقصد أن تصِلي الى هذا الحدّ. هكذا ستكونين من نصيب السيد ترتوف، على ما ارى، وألاحظ أني مخطئة عندما أحرّضك على اتّباع هوى قلبك وابتعادك عن هذا الزفاف الذي تحبّذينه ضمناً. ولماذا أعارض ميلك الى شخص ربما يناسبك وقد تحبّينه يوماً ؟ السيد ترتوف يعرضه عليك والدك، وإن لم يكن الرجل الذي ترتاحين اليه، أنتِ لا تودّين أن تصبحي شريكة حياته، مع أن كل المحيطين بك يقدرونه ويكرمونه. هو مشكور في بيئته، ومرشح للزواج لا يجد أحدٌ عليه أي غبار. أُذنان حمراوان وبشرته زهرية اللون، ويُعتَقَد أنك ستسعدين في الحياة مع مثل هذا الزوج.

مرْيان : يا الهي ...

دُورين : ما هو مدى السعادة التي ستَلْقَيْنَها عندما سيعقد هذا العريس قرانه عليك ؟ لست أدري.

مرْيان : ارجوك أن تكفّي عن هذه المجاملة، وأن لا تناقشيني بأمر هذا الزفاف. فلقد قضي الأمر، وأنا استسلمت الى هذه الفكرة، وبتُّ جاهزة لقبول كل ما يُفرَض عليّ.

دُورين : أنا لا أُنكر أن من واجب الفتاة أن تطيع والدها حتى إن قصد أن يزفّها الى قِرْد. فهذا هو نصيبك البهيج، وليس لك أن تتذمري منه. ستسافرين معه بالعربة الى مدينته الصغيرة المجاورة الغاصّة باعمامه واولاد اعمامه الذين سيسرّك أن تجامليهم. أوّلاً ستذهبين الى جماعة من الطيّبين وستزورين بادئً ذي بدء سيّدات مجتمعه فيُجلسونك على المقاعد الوثيرة، وتُدعَيْن الى الحفلات الموسيقية الراقصة، وأحياناً الى مشاهدة الألعاب والمشعوذين، مع أن زوجك ...

مرْيان : أنت تعذّبينني بهذا التعداد. أرجوك أن تسعفيني بنصائحك القيّمة كعادتك، لا بمزاحك الساخر الذي يأتي الآن في غير محله.

دُورين : أنا في خدمتك، يا عزيزتي.

مرْيان : أرجوك، يا دورين ...
دُورين : لا بدّ من أن تمرّ هذه المرحلة الصعبة وتَعْبُر على خير وسلام.
مرْيان : يا صديقتي ...
دُورين : لا، لا ...
مرْيان : اذا كانت رغباتي ...
دُورين : أبداً. ترتوف هو عريسك، وعليك أن تجرّبي حظك معه.
مرْيان : أنت تعلمين أني على الدوام إتكلْت عليك. فأرجوك ...
دُورين : لا بدّ من أن تصطبغي بصبغة ترتوف.
مرْيان : ما دام مصيري لا يُليِّن قلبك، دعيني إذاً استسلم الى قنوطي، والجأ الى طالعي مهما كان ليعينني على تحمّل عذابي ومعالجة ألمي (تهم بالإنصراف).
دُورين : هيا، هيا إرجعي، وسأتخلّى عن غيظي وغضبي. لأني أرى من الضروري بالأحرى أن أشفق عليك وأرثي لحالك.
مرْيان : إعلمي أني، إذا تعرّضت الى هذا الاستشهاد الجائر، يا دورين، سأموت قهراً وكمداً.
دُورين : لا تقلقي، يا عزيزتي. فبالإمكان منع حدوث ذلك ببعض المهارة ... ولكن، ها هو حبيبك فالير قادم الينا.

المشهد الرابع

فالير، ومريان، ودورين

فالير : سمعت منذ لحظة، يا سيدتي، نبأً سارًّا على ما اظن ...
مرْيان : وما هو ؟
فالير : انك ستُزفّين الى ترتوف.
مرْيان : لقد صمّم ابي على تحقيق هذا المشروع.
فالير : والدك هو الذي صمّم يا سيدتي ؟ ...

مرْيان : ولا سبيل الى تغيير هذا المخطّط إلّا اذا عدل هو عنه.

فالير : ماذا تقولين ؟ هل المسألة جدّيّة إذاً ؟ ...

مرْيان : نعم جدّيدة. ويُخيَّل اليّ أنه مصمّم أكيداً على تتميم هذا الزواج.

فالير : وما هو موقفك أنتِ من هذا المشروع يا سيدتي ؟.

مرْيان : لست أدري.

فالير : أحقًّا لا تدرين ؟.

مرْيان : كلاّ.

فالير : أمر غريب.

مرْيان : بماذا تنصحني ؟.

فالير : أنا أنصحك بأن تتزوّجي.

مرْيان : وهل تنصحني بالقبول به ؟.

فالير : نعم.

مرْيان : جدّيًّا ؟.

فالير : بدون شكّ. فالاختيار جيّد، ويجدر بك أن توافقي عليه.

مرْيان : إذاً سأعمل بموجب نصحك، يا سيدي.

فالير : أظنّ أنك لن تلاقي صعوبة في اتباع نصيحتي.

مرْيان : ليس أكثر من جودك عليّ بتقديم هذه المشورة لي.

فالير : أنا، يا سيدتي، لم أقدّم لك نصحي إلّا لأرضيكِ.

مرْيان : وأنا سأعمل بموجبها لأُعجبكَ بدوركَ ليس إلّا.

دُورين : مهلاً، مهلاً : ما الفائدة من هذه المشاكسة الغبيّة ؟.

مرْيان : لا جدوى من مواصلة هذا الهزار. أرجوكَ أن تكفّ عن هذه المكابرة. لقد صرّحت لي بأن عليّ القبول بمن يقدّمه لي ابي كعريس. وأنا اعترفت بأني أنوي القبول به لا سيما عندما نصحتني بذلك عن طيبة خاطر.

فالير : لا تعتذرى عمّا بدر مني من موافقة على ما أنت أبرزته لي كقرارك النهائي في هذا الموضوع، وتحتجّي بهذا المهرب لتبرّري عدم وفائك بعهودك تجاهي.

مرْيان : هذا صحيح. وأنا لا أنكر ذلك.
فالير : بدون شك، لأن قلبك لم يخفق يوماً بحبّي عن صدقٍ وإخلاص.
مرْيان : يا للأسف. كيف تسمح لنفسك بمثل هذا التفكير الساذج ؟
فالير : نعم. اعتبرت ذلك مُباحاً لأنك دست قلبي. وأنا لن أكون غبيًّا كي لا أدافع عن كرامتي المهانة، وإبائي المهدور، ما دمت قادراً على مدّ يدي الى من يقبلها من الصبايا بامتنان.
مرْيان : لا شك عندي بنواياك الطيبة. وآسف لأنك لا تستحق ما اكنّه لك من مودّة.
فالير : يا إلهي. دعي جانباً ما استحقّه أنا، لأنه أقلّ من القليل في نظرك. وأرجو أن أوفّق الى من لن أندم على الوثوق بها هذه المرة. فلا تهتمّي بشأني لأن الأيام كفيلة بإنصافي.
مرْيان : الخسارة ليست فادحة على كل حال. وهذا التبديل سرعان ما يجد المرء له عزاء.
فالير : سأسعى كل جهدي. ويمكن بالك أن يطمئنّ. فالقلب الذي ينسى حبيبه لا يصعب عليه أن يلاقي النسيان والسلوان. وإذا لم يتوصّل الى راحة ضميره، على الأقلّ يتظاهر بعدم المبالاة. لكن هذه الجبانة لا تُنسى بسهولة، ولن توحي بالمحبّة لمن تُهملنا، ولن تستحق المغفرة على تجاهلها وعودها.
مرْيان : هذه العاطفة لا شك نبيلة وسامية.
فالير : حَسَن جداً. الجميع يؤيدون هذا القول. ولكن هل تريد مع ذلك أن أحفظ لكِ مودتي، وأشاهدكِ تنتقلين الى ذراعي رجل غيري، بدون أن أُودِع فؤادي بين يدي امرأة سواك ؟
مرْيان : بالعكس، أنا لا أتمنّى إلاّ ذلك، وأودّ أن يتحقق املك حالاً.
فالير : هل فعلاً تريدين أن ؟...
مرْيان : نعم.
فالير : كفاكِ ما أَلْحقتِ بي من تحقير، يا سيدتي. رجائي أن يكون صدرك قد طفح الآن سروراً لهذه النهاية. (يتقدّم خطوةً كأنه يريد الخروج ثم يعود).
مرْيان : هذا جميل منك.

فالير : تذكّري أنك أنت التي تدفعينني الى بذل هذا الجهد الأخير.
مرْيان : نعم.
فالير : وان المصير الذي تهيئني له الظروف ليس إلّا إنعكاس رغبتك أنتِ.
مرْيان : إن اعتبرتَها أنتَ رغبتي أنا، فلتكنْ.
فالير : كفى، وقد وأوشكتْ أمنياتك أن تتحقّق.
مرْيان : هذا من حُسْن حظي.
فالير : ألا ترين أن ذلك سيدوم مدى حياتك بأكملها ؟.
مرْيان : أنا لا أتمنى أحلى من هذا المصير.
فالير : طيّب. (يخرج. وعندما يصل الى الباب يلتفت).
مرْيان : ماذا جدّ ؟.
فالير : ألم تنادِيني ؟.
مرْيان : أنا ؟ أظنك تحلم.
فالير : اذاً سأواصل خطواتي. الوداع، يا سيدت.
مرْيان : الوداع، يا سيدي الكريم.
دُورين : أمّا أنا فاعتقد أنكما كليكما قد فقدتما الرشد بهذا التصرف الصبياني، إذْ تركتكما تتابعان شجاركما بغباء. قلْ لي، يا سيدي فالير، الى أين سيبلغ بكما هذا التمادي. إلى أين، يا سيدي فالير ؟ (تُمْسِك بذراعه، ويتظاهر هو بمقاومتها) ؟.
فالير : ماذا تريدين ان افعل، يا دورين ؟.
دُورين : تعالَ الى هنا.
فالير : لا، لا. لقد طفح الكيل. لا تحولي دون إقدامي على ما أرادته هي.
دُورين : قفْ بربّك.
فالير : كلاًّ. ألا ترِين الى أين وصلتْ بنا الأمور ؟.
دُورين : آه منك.
مرْيان : مشاهدتي تزعجه، وحضوري ينفّره. فالأجدر بي أن أُخْلي أنا له المكان.
دُورين (تترك فالير، وتسرع الى مريان) : هل تبادرين الى ملاقاة العريس الآخر ؟ إلى أين تذهبين ؟.

مرْيان : دعيني.
دُورين : لا بدّ من رجوعكِ.
مرْيان : كلا، كلا، يا دورين. أنتِ تحاولين عمل المستحيل. لن أبقى هنا.
فالير : لقد ثبت لي الآن أن وجودي في هذا المكان يسبّب لها عذاباً أليماً وبدون شك يجب عليّ انقاذها من هذا الجحيم.
دُورين (تترك مريان، وتُسرع الى فالير) : أنت أيضاً ؟ تبًّا لك من مُكابر. أقلِع عن هذا العناد السمج. وليقتربْ كلٌّ منكما نحو الآخر. (تشدّهما معاً الواحد نحو الآخر).
فالير : ولكن، ماذا تريدين ؟.
دُورين : أودّ أن أُبقيكما هنا معاً، وأن أحلّ هذه العقدة. هل جننتما كلاكما، لتتصرّفا على هذا النحو السخيف ؟.
فالير : ألَمْ تسمعي بأية لهجة كلّمتني ؟.
دُورين : وهل أنتِ مهووسة، يا مريان، لتنفري هكذا ؟.
مرْيان : ألَم تَرَيْ تصرّفه ؟ أوَلَمْ تسمعي ما قاله لي ؟.
دُورين : الحماقة بدرت منه ومنك سويةً. في الحقيقة هي لا تودّ إلّا نيل الحظوة في عينيك، يا فالير. وأنا شاهدة على ذلك. بينما أنتَ لا تحبّ سواها، وليس لكَ أمنية أعزّ من الإقتران بها. أُقسم لكما بحياتي إني واثقة بما أبيّنه لكما.
مرْيان : لماذا اذاً، يا فالير، أدّيت لي بنصيحتك المزعجة ؟.
فالير : ولماذا أنتِ طلبتِ رأيي في هذه القضية الشائكة ؟.
دُورين : كلاكما مرتبكان لا تَعِيَانِ ما تفعلان. ليُعطني كلٌّ منكما يده. هيا ناولاني يديكما معاً.
فالير (وهو يمدّ يده الى دورين) : وما الفائدة من يدي ؟.
دُورين : وأنتِ أيضاً هاتي يدكِ.
مرْيان (وهي تمدّ يدها) : وما معنى كل هذا ؟.
دُورين : يا إلهي. تقدّما بسرعة. أنتما تتحابّان اكثر مما تتصوّران.
فالير : لا تجبري نفسك، يا مريان، على عمل ما تفعلينه مرغمةً. وانظري

الى الواقع بدون حقد. (تحوّل مريان نظرها الى فالير، وتبتسم).

دُورين : الحق أقول لكما : العشاق يتصرفون كالمجانين أحياناً.

فالير : ما هذا التمادي ؟ ألا يحقّ لي الآن أن أتذمّر من تطاولكِ ؟ ولكي لا أكون كاذباً، لا أمتنع عن مصارحتك بأنك تجاوزتِ حدودك ووجهتِ اليّ بنوع خاصّ كلاماً مهيناً.

مرْيان : وأنت، أوَلَسْتَ الرجل الأكثر عقوقاً بموقفك الغريب هذا ؟.

دُورين : أُترُكا النقاش الحادّ الى وقت آخر. ولنفكّر في الحؤول دون تحقيق ذاك الزواج البغيض المنتصب امامنا كالكابوس الرهيب.

مرْيان : هيّا قولي لي : ما هي الوسيلة التي توصلنا الى منعه ؟.

دُورين : سنجرّب عدة طرائق حتى تنجح منها المُلائِمة. فوالدك غير مكترث لصالحك، وما يريده هو مهزلة سخيفة. لكن بالنسبة إليكما، عليكما أن تلجآ الى حلّ لطيف هادئ يحوز موافقته ورضاه، بدون أن ندفعه الى استخدام العنف. واذا تعقّدت الأمور يهون عليكما إذ ذاك أن تُبَطِّئا سير استعدادات الزواج غير المرغوب. وبكسْب الوقت لا بدّ من إيجاد حلّ جذري للمشكلة المستعصية. في آخر المطاف إذا اقتضى الأمر نلجأ الى التظاهر بالمرض، فيتسنّى لنا إفساح المجال للتأجيل والمماطلة. هناك حجج لا تُحصى لا بدّ من أن يُكتَب النجاح لإحداها. والأوْلى عندي أن لا تدعا أحداً يراكما في هذه الأثناء مجتمعَيْن معاً. (تخاطب فالير) أُخرُجْ أنت الآن وحدك بدون تأخير، ووسِّط بعض الأصدقاء للوصول الى الوفاء بما وَعَدْتَ به منذ لحظة. وها نحن ذاهبتان للاستفادة من جهود شقيق صاحبنا المعقّد، ولن نتأخّر عن زجّ حماتك أيضاً في الوساطة لصالحنا. فالوادع.

فالير (تخاطب فالير) : أنا لا أضمن رضى والدي بسهولة. لكنني أعدك وعداً قاطعاً بأن لا أكون لسواك.

فالير : ما أحلى هذا التأكيد الصريح. ومهما جرى ...

دُورين : الثرثرة لا تروي غليل المحبّين. هيا اخرجا الى السعي والعمل.

فالير (يتقدّم خطوة ثم يعود) : وأخيراً ...

دُورين : ما أكثر كلامك وأقلّ عملك. (وهي تدفع كلاً منهما بكتفه) : أُخْرُج أنتَ من هنا. واخرجي أنتِ من هناك.

الفصل الثالث

المشهد الأول

داميس، ودورين

داميس : لتحرقني الصواعق إذا لم أُلْجُمْ هذا الدجّال وأضعه عند حدّه. فلن يردعني أي احترام أو اعتبار متى نويت وقصدت أن أقف في وجهد عدائه.

دُورين : من فضلك، خفّف من حدّتك. فوالدك لم يتعدَّ طور الكلام، ولم يصل بعد الى الأفعال. والأجدر بك أن لا تحاسبه حتى على أقواله، والطريق طويل بين الوعيد والتنفيذ.

داميس : لا بدّ لي من تفشيل المؤامرة، وسأهمس في أذنه كلمتَيْن قارصتين.

دُورين : تمهّل في ما يخصّه ويخص والدك. ودع السيدة تقوم بمسعاها لأنّ لها دالّة على ترتوف، وهو يرتاح الى كل ما تنصحه به. ولا بدّ من أن يضطره لطفها الى مسايرتها. أملي كبير في أن نبلغ حتماً ما نصبو إليه. ستفاتحه هي بأمر الزفاف وتسبر غور عواطفه، وتُفهمه مدى الشرّ الذي سينجم عن القسْر لاسيما في موضوع الزواج. وهناك أمل كبير أيضاً بإقلاعه عن هذه الفكرة، إذ إنّ خادمه أبلغنا بأن سيّده لا ينقطع عن الصلاة. وقد أخبرني هذا الخادم أيضاً أن سيّده لن يلبث أن يجيء الى هنا.

داميس : يمكنني إذاً أن أظل حاضراً لأستمع الى ما تقولينه له.

دُورين : لا، لا. يتحتّم أن نكون وحدنا.

داميس : لن أُوجّه اليه أية كلمة.

دُورين : هل تسخر مني. أنا أعرف حماسك المعتاد. وهو كفيل بأن يشوّه كل ما رسمناه من خطط. هيّا أخرج.
داميس : كلا. أريد أن أرى بأم عيني وأسمع بأذني. وأعدك بأن لا أستشيط غضباً.
دُورين : تبّا لك من عنيد. ها هو قد أقبل. هيّا انسحب.

المشهد الثاني

ترتوف، ودورين

ترتوف (يبصر دورين (: ها أنا ألوذ بمِسْحي وتقشُّفي، وأبتهل دائماً الى السماء لتنير عقلكِ. وإذا أتى أحد لمقابلتي قولي له إني ذاهب لزيارة المسجونين وتوزيع الإحسانات عليهم.
دُورين : ما هذه المُراءاة والإدّعاءات الباطلة ؟.
تَرْتوف : ماذا تريدين أن أصنع ؟.
دُورين : أقول لك ...
تَرْتوف (يسحب منديلاً من جيبه) : يا إلهي. أرجوكِ أن تأخذي منّي هذا المنديل قبل أن أنظر إليك وأخاطبك.
دُورين : ولماذا ؟.
تَرْتوف : لتستري به صدرك المكشوف الذي لا يمكنني أن أشاهده. إذْ إن ذلك يجرح شعوري ويثير في أعماقي أسوأ الأفكار.
دُورين : أنتَ إذاً سريع الوقوع في التجربة، ومنظر الجسد يؤثّر كثيراً على أحاسيسك. أنا لا أعرف ماذا يهيّج مشاعرك. غير أني من جهتي لست ممّن يندفعون بسرعة الى الشهوات. ولو أبصرتك عارياً من قمة رأسك الى أخمص قدميك لن تغرّني رؤية بَشَرتك إطلاقاً.
تَرْتوف : تَوَاضَعي في حديثك قليلاً واحتشمي، أو أغادر هذا المكان فوراً.
دُورين : لا، لن أشوّش عليك هدوء عواطفك. لكني أودّ أن أبلغك كلمتَيْن :

إن سيّدتي لن تلبث أن تنزل الى هذه القاعة وتنوي إبلاغك أمراً ضرورياً.

تَرْتوف : سأنتظرها بكل سرور.

دُورين (تخاطب نفسها) : ما أَلْطفه الآن. أنا لا أزال مصرّة على ما قد قلته عنه.

تَرْتوف : هل ستتأخر في المجيء ؟.

دُورين : ها أنا أسمع وقع أقدامها. أجل، هي بذاتها قد وصلت. وأنا أتركما معاً.

المشهد الثالث

أَلْمير، وترتوف

تَرْتوف : عافاكِ الله روحاً وجسداً، وبارك أيامكِ بفيض كرمه وحبّه العميم الذي يَغمر به البشر.

أَلْمير : أشكرك على هذه التمنّيات التقويّة. تفضّل إجلس على هذا المقعد لكي تكون مرتاحاً.

تَرْتوف : هل شُفيتِ من وعكتك الصّحيّة. بإذنه تعالى ؟.

أَلْمير : تماماً، والحمد لله. لقد غادرتني الحمّى منذ بعض الوقت.

تَرْتوف : صلواتي ليس لها هذا المفعول لأستدرّ عليك سيل النِعَم من العلاء. فأنا لم أتوسّل الى السماء بإلْحاح إلا من أجل تعافيك العاجل.

أَلْمير : هذا من جرّاء غيرتك وقلقك عليّ.

تَرْتوف : صحتك غالية عندي. وأنا مستعد للتنازل لك عن صحّتي اذا لزم الأمر.

أَلْمير : أراك تبالغ في تمنّياتك الصادقة لي، وأنا مدينة لك بكل هذه الألْطاف.

تَرْتوف : إني أفعل أقلّ بكثير مما يتوجّب عليّ وتستحقينه أنتِ على طيبة قلبك.

أَلْمير : لقد وددت أن أخاطبك على حدّة بأمر هامّ، ويسرّني أن يكون أحد حاضراً هنا ليسمعنا.

تَرْتوف : يُسعدني أن أَلْتقي بك على انفراد، يا سيدتي. فهذه فرصة سانحة طلبتها من السماء، وها أنا أتلقّاها في هذه الساعة المباركة بالذات.

أَلْمير : ما أَلْتمسه وأتوق اليه هو كلمة منك تفتح قلبك لي بدون أن تخفي عني حرفاً.

تَرْتوف : هذا ما أريد أن فعله، لأَكشف لك مخبّآت صدري بأجمعها. أُقسم لك أن الضجة التي أثرتها أنا بخصوص الزيارات التي تجتذبك الى هنا ليست ناجمة عن أي حقد، بل عن دافع غيرة طاهرة، وعن نيّة صافية ...

أَلْمير : أعتقد أن خلاصي هو الذي يسبّب لك كل هذا الهمّ.

تَرْتوف (يصافحها برؤوس أصابعه) : نعم، يا سيدتي، بدون شكّ هو اهتمامي بك الى حدّ ...

أَلْمير : آه، لقد شَدَدْتَ كثيراً على يدي.

تَرْتوف : هذا طبعاً نابع من عِظَم اهتمامي بمصلحتكِ. ثقي بأني لا أجرؤ على إيلامك لسبب آخر، بل كنت أفضّل ...

أَلْمير : ماذا تفعل يدك هنا ؟.

تَرْتوف : إنّي أتلمّس ثوبك. حقًّا، نسيجه ناعم للغاية.

أَلْمير : بربّك دعني من هذا. فأنا سريعة الدغدغة. (تُرجع مقعدها الى الوراء، ويقرّب ترتوف مقعده نحوها).

تَرْتوف : يا الهي. كم هذا الشغل مُتْقَن. في الحقيقة أَنْسِجَة اليوم عجيبة مدهشة. لم أُبصر ما هو ا كثر نعومة وروعة من حياكتها.

أَلْمير : هذا صحيح. لكن الأجدر بنا أن نتكلّم عن قضيّتنا. يُقال إن زوجي وعدك بأن يزفّ اليك ابنتنا. أَخْبِرْني هل هذا حقًّا صحيح ؟.

ترتوف : في الحقيقة، لقد أسمعني كلمتَيْن في هذا الموضوع. وليس هذا كل السعادة التي أرجوها. بينما أرى في غير مكان ما يجتذبني الى الهناء الّذي أحلم به.

أَلْمير : لانك لا تحبّ الأمور الأرضية كثيراً.

تَرْتوف : لكن صدري لا يحوي قلباً من حجر.

أَلْمير : على ما اعتقد، أنت لا تعلّق أهمية كبيرة على الملذات الأرضية لأنك تهدف دائماً الى السعادة السماوية.

تَرْتوف : الجمال الذي يجتذبنا الى البهاء السماوي لا يخنق فينا حب الأطايب الزمنية. وحواسّنا تستهويها بسهولةٍ معظم المتع التي كوّنها الباري، وجماله سبحانه وتعالى ينعكس على مخلوقاته. وقد زرع بين ضلوعنا قلوباً رقيقة مفعمة حباً ترتوي بمعاني الجمال، فتَجْلي أنظارنا وتبهج أفئدتنا. وأنا لا يسعني أن أراكِ كخليقة كاملة الأوصاف بدون أن أُعجب من خلال مواهبك بمقدرة مبدع الأكوان، وقد صنع الإنسان على صورته ومثاله. قبلاً، كنت أخشى بحرصٍ متردّدٍ على مصيري من عينَيْكِ الساحرتَيْنِ معتبراً اياهما خطراً على خلاصي، حتى خَبِرْتُ ودادك ووفاءك، فأَمِنْتُ شرّ الإنزلاق، من جراء ما لمسته فيك من الحياء والإباء. فتركت لعواطفي الحبل على الغارب تسبح في أجواء طيبة قلبك وطهارته. والآن، لا أتردّد في الإعتراف بأني بِتُّ أركن الى علوّ أخلاقك ورحابة صدرك لتعالجي ميولي وتهدّئي اضطراب نفسي بما لمسته فيك من حُسْنِ الرعاية والتشجيع على مواصلتي التهادي في رياض الغبطة والهناء. إذ أضحى في وسعك ان تتحكّمي بمشاعري وتحكمي عليّ بالسعادة أو بالشقاء كما يشاء هواكِ.

أَلْمير : تصريحك هذا، وإن بلغ غاية الظرف والكياسة، فاجأني في الحقيقة. لأنك رغم ما يبدو عليك من التحفّظ والتقوى كما عرفك الجميع ...

تَرْتوف : من ناحية التقوى، أنا لست مميّزاً عن سائر الرجال. وعندما أنظر الى ما يتجلّى في الينابيع السماوية، تتبيّن لي الحقيقة الواقعيّة رغم أنّ قلبي ينقاد بدون تبصّر الى الملذات الأرضية. على كل حال، يا سيدتي، أنا رجل من البشر ولست ملاكا. وإذا أَدَنْتِ تصريحي عن أَلْطاف شخصكِ، فالحقّ على سحرك الجذّاب الذي أسرني حالما أبصرت روائع أُنوثتك، وما لبث حُسْنك ان ملك فؤادي في شرع الغرام. فانهارت مقاومتي حيال طغيان جاذبيّتك وسَيْطَرْتِ على مشاعري في جنة حبك، وتغلبتِ على كل ما بذلتُه من جهود في دنيا الصيام والصلاة والزهْد. وإذا بعينيَّ تبوحان

لك أَلْف مرة بخضوعي لسموّ فضائلك، وها أنا أعبّر لك بصوتي عما تطفح به أشواقي إليك من الإعجاب والتقدير والتفاني. فإن علوّ همّتك ليس صدفة اذ يلمع كوميض البرق، بل هو ينبوع يترقرق منه سلسبيل حلاوتك باستمرار مدى الحياة. واذا شاءت رقة شعورك أن تعزّيني وتواسيني في خيباتي المريرة، فإن تقواك لن تتعرّض حيالي الى أية مغامرة مزعجة، وليس ما تخشينه من قبلي على أية نزوة عابرة. فالظرفاء الذين يستقطبون ميول أحلى النساء لا يتجنّوبن صخباً ولا زلّة لسان أثناء المغازلات الغرامية التي ينزلق لسانهم عند تدفّقها مع سيل شهواتهم الطاغية البعيدة عن التروّي والتعقّل. بينما الرجال الذي يغارون على أسرار علاقاتهم يصونون كرامة شعور حبيباتهم لأنهم هم من يُؤْمَن جانبهم، ما داموا يهوون مبتعدين عن فضائح العشق، ويتنعّمون بالمُتَع المعقولة بدون خوف ولا وجل.

أَلْمير : أنا أستمع الى خطابك البليغ ونفسي مرتاحة الى درر أقوالك. فلا تظن أني أنقل الى زوجي ما ردّدته أنتَ على مسمعي من حِكَمِكَ عن الحب والولاء وحُسْن التصرّف في ظل المودّة والوفاء.

تَرْتوف : وأنا عارف بأنك مرهفة الحسّ ذكية الجنان، وأنك رحبة الصدر تستوعبين فيض انفعالات مشاعري التي يطفح بها صدري بدون تعكير صفاء التفاهم الذي يسود بيننا. فالحبيب الحقيقي لا يجرح معبوده ولا تنسَيْ أني كسائر الرجال مُرَكَّب من لحم ودم.

أَلْمير : سواكَ يحمل هذه الأمور على غير هذا المحمل السليم. وتعبيري عن مشاعري لا يعني إلّا صدق أمانتي. فلن أخبر زوجي بما جرى بيننا من حديث لكنني أسألك بالمقابل أن تسعى لديه الى التعجيل في عقد قران فالير ومريان بأقرب وقت ؟ وإنْ كَبَتَّ عواطفك وتخلّيْتَ عن آمالك وأحلامك في سبيل إسعاد هذَيْن العاشقَيْن العزيزين.

المشهد الرابع

داميس، وألمير، وترتوف

داميس (وهو يخرج من غرفة صغيرة حيث كان مختبئاً) : لا، يا سيدتي، لا. هذا الكلام الوقح يجب أن يُنْشَر. فأنا من مخبإي سمعت كل ما دار بينكما من حديث جَسُور. وكأن السماء ألْهمتني الى التواري في هذا المكان، لأهدّ عجرفة هذا المتهتِّك المتشامخ الذي يستحقّ التنديد. ولكي أُبادر الى الانتقام من خبثه ومراوغته، وهو يخدع والدي بتسهيل مصاهرته، هو الرجل السافل المخادع الذي يستر مآربه الدنيئة بمحاضراته المغرضة المنافقة عن الحب والزواج والآخرة.

ألْمير : لا، يا داميس. يجب علينا أن نتمسّك بالتعقّل. فحاولْ أنت أن تجعله يُحقق المنّة التي طلبتُ منه ان يساعدنا على نيلها من والدك. وبما أني وعدته بالكتمان لا أريد أن أتراجع عن الوفاء به. فكما تعرف، أنا لست ممّن يرتاحون الى مظاهره الخداعة. فلا المرأة ترضى بمثل هذا الغباء، ولا الرجل يصدّق كل ما يطرق سمعه.

داميس : أنتِ لديكِ حجتك للتصرّف هكذا. أمّا أنا فإنْ فعلت العكس فلي أسبابي الوجيهة، وتجنُّب الفضيحةِ حينئذ يصبح مهزلة ساذجة. ما دام المتشامخ الوقح لم يفز إلّا بإغضابي؛ كذلك هذا الخبيث اللعين الذي سيطر على تفكير أبي لم يكسب سوى كَرَهي وبُغْض فالير. فما على الجاحد إلّا اتقاء عقاب السماء على ما جنت يداه من آثام. وبهذه الماسبة الملائمة كأنها فرصة مغرية تساعدني الظروف على استخدامها عند الحاجة.

ألْمير : لكن، يا داميس ...

داميس : لا، لا. أرجوكِ أن تصدّقيني. أنا الآن في ذروة سروري. وحديثك يدفعني الى تذوّق لذّة الانتقام سلفاً. لكني سأُقف عند هذا الحدّ، ولن أُقدم إلّا على ما يرضي ضميري.

المشهد الخامس

أوركون، وداميس، وترتوف، وألْمير

داميس : سنرى، يا أبي، ما هو النفع الذي تجنيه من حادث جديد سيدهشك كثيراً. أنت، على ما ألاحظ، قد استفدت من المسايرة التي ترضيك، وهذا السيد قد استفاد بدوره من مسايرتك غير المحدودة. وها قد صرّح بما يصبو اليه عبْر غيرته على مصالحك. وقد فاجأته وهو يحاول أن يلوّث شرفك بإعلانه لوالدتي تصريحاته المهينة عن حبّه ورغباته. وهي من جهتها، بما تتّصف به من دماثة الخلق والصفات الحميدة، أَبَتْ أن تثير الفضيحة، فظلّت صامتةً على مضض. لكنني لن أقبل مطلقاً بالتغاضي عن هذه المحاولة الدنيئة. وأعتقد أن سكوتي عن هذه المجازفة هو خطأ جسيم وجريمة لا تُغتفر.
أَلْمير : نعم أنا أعتقد نظيرك أن سكوت الزوجة وعدم إعلام رَجُلَها بالأمر غير جدير بأمانتها. ففي القضيّة كرامة يجب أن تُصان. وأعلم، يا داميس، أن عواطفي لن تتأثر، ولن أكشف سرّها لأن ثقتك التي أتمتّع بها غالية عليّ جداً.

المشهد السادس

أوركون، وداميس، وترتوف

أُورْكون : هل إن ما سمعته الآن، يا الهي، كلام يُصدَّق ؟.
تَرْتوف : نعم، يا أخي. أنا جبان ودنيء بل أحقر الصعاليك. وكل لحظة من حياتي حافلة بالمساوئ، ومليئة بالجرائم والذنوب. وأعتقد أن السماء ستقاصصني بسبب ما ارتكبته من عصيان وتمرّد على شرائعها. لذا لا أتبجّح برغبتي في الدفاع عن نفسي. فصدِّقْ ما تشاء تصديقه، وصُبَّ جام غضبك عليّ كمجرم، واطردني من أمام وجهك إذا أردت، فلن يَقَيَني خجلي وأسفي من استحقاق المزيد من اللوم والعقاب.

أُوزْكون (لولده) : أيها الأحمق، هل تجرؤ بكل هذه النقائص ان تسوّد بياض صفحة الرجل الفضيل الطاهر ؟.

داميس : ماذا تقول ؟ هل توصَّل هذا المنافق المرائي الذي يرتدي ثوب اللطافة والعفة زوراً وبهتاناً، أن يحملك على تصديقه وتكذيبي ؟ ...

أُوزْكون : آصمتْ، أصابك الطاعون.

تَرْتوف : دَعْهُ يتكلّم. فأنت تتهمه باطلاً ويجدر بك أن تصدّق أقواله. لماذا أُقدم أنا على مثل هذه المغامرة ؟ الخطأ جرى لصالحي. هل تدري على كل حال ماذا يسعني أن أفعل ؟ هل تتّكل على مظاهري الخارجية ؟ وهل تظنّ أنني أَفْضلَ مما بدا مني لك ؟ لا، لا. لقد خدعتْك الظواهر فعلاً. فأنا لست، مع الأسف، ما يظنّه الجميع بي. إذْ أنهم يعتقدون أني رجلُ خير وصلاح. بينما في الواقع أنا لا أساوي فلساً واحداً. (يخاطب داميس) : أجل، يا ابنيّ العزيز، تكلَّم، عاملني كسافل وجاحد وهالك وقاتل. وزدْ عليها أَلقاباً أخرى أحقر وأبغض منها. فلن أعارضك، ولن أكذّبك، لأني أستحقّها. وأنا مستعدّ أن أجثو على ركبتيّ وأتحمّل وزرها من قبيل المذلّة والعقاب على كل ما ارتكبته من ذنوب في حياتي.

أُوزْكون (لترتوف) : هذا كثير، يا أخي. (لإبنه) : أنا واثق بأن ضميرك لن يخون عهدي.

داميس : ماذا تقول ؟ هل سحرتْك أقاويل هذا المحتال الى هذا الحدّ ؟.

أُوزْكون (لابنه داميس) : أُسكتْ، أيها الشقيّ. (لترتوف) أرجوك أن تنهض، يا أخي. (لابنه ثانية) : تبًّا لك من خسيس.

داميس : يمكنه ...

أُوزْكون : أُصمتْ.

داميس : لقد فقدتَ صوابك. ماذا تقول ؟ هل أصبحتُ أنا ...

أُوزْكون : إن أضفتَ كلمة أُخرى، حطّمتُ رأسكَ.

تَرْتوف : بربّكَ، يا أخي، أرجوك أن لا تغضب. أنا أُفضِّل أن أتحمّل أقصى العذاب على أن يصيبه أقلّ خدْش.

أُوزْكون (لولده) : تبّا لك من جاحد عقوق.

تَرْتوف : أُتركْه بسلام. إذا اقتضى الأمر، سيجثو أمامك ويطلب منك الغفران ...

أُوزْكون (لترتوف) : يؤسفني أن تسخر .. (لابنه) : يا غبي أُنظر الى طيبة قلبه وَرِقَّة شعوره.

داميس : اذاً ...

أُوزْكون : دعْهُ بسلام.

داميس : ماذا تقول ؟ أنا ...

أُوزْكون : قلت لك : دَعْهُ بسلام. أنا عارف بما يدفعك الى مهاجمته. كُلُّكم هنا تكرهونه. واليوم أرى النساء والأولاد والخدّام يثورون عليه. وبدون حياء يعادونه ويحرّضونني على انتزاع ثقتي من هذا الرجل التقي. لكن كلما أَمْعَنْتُم في اضطهاده لإبعاده عني، كلّما تمسّكت أنا به. وسأُعَجِّل في عقد قرانه على ابنتي، لكي أحطّم كبرياء جميع أفراد أسرتي الغاشمين الرافضين.

داميس : أنت تظنّ أنك تُحْسِن صنعاً بالنسبة إليه اذا منحته يد ابنتك.

أُوزْكون : أجل، أيها الأحمق، أريد أن أغيظك. أنا أتحدّاكم جميعاً، وسأعلّمكم كيف تطيعونني وتخضعون لمشيئتي، أنا السيد الآخر الناهي في هذا البيت. هيّا انسحبوا من هنا حالاً؛ وبادروا أيها الرعاع الى الركوع، عند قدميه واستغفروه.

داميس : من ؟ أنا ؟ تريد أن أطلب السماح من هذا الوغد الحقير ؟.

أُوزْكون : هل تجسر على مقاومته وعلى إهانته، أيها الصعلوك ؟ (لترتوف) ناولْني قضيباً، هيّا ناولني قضيباً، ولا تُمْسِك بي. (لابنه) وأنتَ أُخرجْ حالاً من منزلي ولا تعُدْ أبداً الى هنا.

داميس : سأخرج. ولكن ...

أُوزْكون : أسرعوا كلّكم وغادروا هذا المكان. فأنا أحرمك من ميراثي، أيها السافل الحقير، وأصبّ عليك كلّ لعناتي.

المشهد السابع

أوركون، وترتوف

أورْكون : كيف يجسر على إهانة إنسان قدّيس كهذا ؟.

تَرْتوف : سامحيه أيتها السماء على ما سبّبه من الآلام. (لأوركون) : ليتك تعلم كم يحزنني أن أرى ما يسوّد صفحة أخي.

أورْكون : حقًّا هذا أمر مُؤْسِف.

تَرْتوف : مجرّد التفكير بهذا العَقُوق يعذّب نفسي ويسحقها .. ما أفظع هذا العمل البذيء ... قلبي يتفتّت ألماً؛ ولا أستطيع أن أتكلّم. أكاد أموت غمًّا من جرّاء هذه المعاملة السيئة.

أورْكون : يسرع، والدموع تنهال على خدّيْه، وهو يتوجّه الى الباب حيث تَوَارى ابنه المطرود) : أيها الأحمق، سأندم إذا سامحتُك، أؤدّبك على الفور.

تَرْتوف : هدئ من روعك يا اخي، ولا تنفعلْ. لِنَكُفَّ عن هذه المناقشة العقيمة. أنا أرى كم من الفوضى سّببتْ، وأعتقد أن الضرورة تقضي، يا أخي، بالتخلّص من هذا المأزق.

أورْكون : وكيف نتوصّل الى ذلك ؟ هل تهزأ بي ؟.

تَرْتوف : الجميع يكرهونني. وأرى أنهم يحاولون إثارة الظنون والشكوك حولي.

أورْكون : هذا لا يهمّ. هل تجدني أُعيرهم أذناً صاغية ؟.

تَرْتوف : لا سبيل، بدون شك، الى ملاحقته. وهذه العلاقات التي يرفضونها الآن، قد يقبلونها في المرة القادمة.

أورْكون : لا، يا أخي، لا، أبداً.

تَرْتوف : أنت تعلم، يا أخي، أن المرأة تستميل زوجها بسهولة.

أورْكون : لا، لا أعتقد.

تَرْتوف : دَعْني بابتعادي سريعاً من هنا، أحرمهم من كل ما يساعدهم على مهاجمتي.

أورْكون : كلاّ، ثم كلاّ لن تذهب.

تَرْتوف : أكرّرلأ عليك، وأرجوك أن تدعني، بابتعادي سريعاً من هنا، أن أحرمهم من كل وسيلة تساعدهم على مهاجمتي والنيل مني.
أُوزْكون : لا، بل ستبقى هنا، لان حياتي معلّقة بوجودك الى جانبي.
تَرْتوف : اذاً، لا بدّ لي من التقشّف. مع ذلك، إذا شئتَ أنت ...
أُوزْكون : آهٍ منكَ.
تَرْتوف : كما تريد، لن نطرق بعد الآن هذا الموضوع. لكني أعرف أنّ علينا أن نستخدم كل الطُرُق. فالشرف سرعان ما يتلوّث، والصداقة تضطرّني الى تجنُّب الضجة والمواضيع الشائكة. سأتحاشى لقاء زوجتك، ولن تَرَيَاني كِلاكُما بعد هذه اللحظة أبداً.
أُوزْكون : لا، لا. رغماً عن الجميع ستعاشرها. ويسرّني أن أُغيظ كل المعارضين. وأصرّ على أن يشاهدك الجميع بمعيّتها في كل حين. هذا ليس كافّة ما أبغي. سأتحدّى وأغيظ كل محيطي بجعْلك وريثي الوحيد. لذا سأهبك جميع أملاكي وأرزاقي. فأنت أعزّ صديق لديّ وسأجعلك صهري زوج ابنتي. وهكذا تصبح من أقرب المقرّبين اليّ، أكثر من ابني ومن زوجتي ومن كل أنسبائي. فهل يسعك أن ترفض هذا الإمتياز الذي أعرضه عليك بملء رضاي.
تَرْتوف : لتكنْ مشيئة السماء. وكما تريد أنت ستمّ الأمور.
أُوزْكون : ما أطيب عنصرك. تعالَ نظِّمْ مستنداً مكتوباً بهذا المعنى. ولينفجرْ غيظاً جميع من لا يرضون بهذا التصرّف الذي أُصرّ على التمسّك به.

الفصل الرابع

المشهد الأول

كليانت، وترتوف

كليانْت : أجل كل الناس يؤكدون، ويمكنكم أن تصدّقوني، أن الضجة القائمة ليست من صالحك. ولقد وجدتك، يا سيدي، مرتاحاً في هذه الفترة لكي أعبّر لك بكلمتيْن عما أفكّر به. أنا لمْ أتفحّص بعمقٍ ما يُعْرَض عليك، بل أتجاوز ذلك وأتناول المسألة من أصعب وجوهها. لنفترض أن داميس لم يُحْسِن السلوك، وأنك أنت متَّهَم خطأً، أَوَلا يجمل بك أن تصفح عن الاساءة، وأن لا تفكّر مطلقاً بالانتقام؟ هل يجب عليك أن تتحمّل مسؤولية طرد الإبن من بيت أبيه؟ أُكرر لك بصريح العبارة أنّ الكبار والصغار استاؤوا من هذه المعاملة البذيئة. واذا صدّقتني، بادرتَ الى مسالمة الجميع، ولم تلاحق القضية حتى نهايتها. فإكراماً لله كُفَّ عن الغضب وَدَعِ الابن وأباه يتصالحا، ويسويّا خلافهما.

تَرْتوف : يؤسفني أن أعلن لك أني بطيبة خاطر لا أُكُنّ له، يا سيدي، أية ضغينة. فأنا أُسامحه ولا أُلومه البتّة، وأودّ أن أخدمه من كل قلبي. لكن السماء لن توافق على ذلك، ويتحتّم عليّ أن أخرج. وبعد فِعْلَتِه التي ليس لها من مثيل أصْبَح التعامل فيما بيننا فضيحة لا يعلم إلّا الله كيف ينظر الناس إليها. فأضطر الى مداراة الجميع ليغضّوا الطرف عن استهتاري.

كليانْت : أنت تحاول أن تبرّر نفسك وتبرّئ ساحتك، وكل حججك،

يا سيدي، غير مقبولة. لماذا تهتمّ بعدالة السماء التي تُقاصص من يستحقّ العقاب ؟ دعْها تنتقم، ولا تفكّر بالعفو عن الإهانات، ولا تنظر الى أحكام البشر عندما تتمسّك بشرائع السماء. ماذا تقول ؟ علينا أن نتمّم واجباتنا نحو العلاء ولا نقلق، لئلاّ نشوّش راحة ضمائرنا.

تَرْتوف : لقد صرّحت لك بأن قلبي يغفر إساءة هذا الإنسان المتطاول، كما أوصانا الربّ، يا سيدي. ولكن، بعد الفضيحة والعار في هذه الأيام العصيبة لن ترضى السماء بأن أعيش برفقته.

كليانْت : وهل علمت، يا سيدي، بأنك ستضطرّ الى الاصغاء مرغماً الى ما تُوَسْوِسُه الأهواء للاب الظالم. فقبول منحةٍ من المال لا تُعطيك الحقّ بأن تدَّعي امتلاكها.

تَرْتوف : من يعرفني جيداً لن يفّكر بأني اشتهي أموال هذه الدنيا التي أزهد بها، ولا يغرّني بريقها الوهّاج. وإنْ تيسّر لي أن أحصل عليها عن طريق أبي، وإنْ وهبني اياها عن طيبة خاطر، أخشى أن يقع هذا المال يوماً في أيْدٍ لئيمة تتقاسمه وتستغلّه في طُرُق الشرّ والجريمة، لا في سبيلٍ يُرضي الله وينفع القريب.

كليانْت : يا سيدي، لا تأبه لهذه المخاوف التي قد يشكو منها وريث صالح. وليتحمّلْ صاحب هذا المال مسؤولية إساءة استعماله. فذلك خير لك من أن تُتَّهَم أنت بتبديده سدىً. فأنا أُعجب بدون قلق من أن تكون لك الرغبة في إبداء الرأي، من أن تعمل على تجريد الوارث الشرعي من حقوقه الأكيدة. وإذا قيّض لك الله أن تعيش بصحبة داميس، فذلك خير لك من أن تسبّب طرد الإبن من بيت أبيه. حقًّا سيتمّ ذلك على حساب تبصّرك وتحفّظك.

تَرْتوف : الآن، يا سيدي، الساعة تقارب الثالثة والنصف. وهناك واجبات تقويّة تستدعيني. فأرجوك أن تعذرني، لأني مضطرّ الى مغادرتك.

كليانْت : وما هي هذه الواجبات ؟

المشهد الثاني

أَلْمير، ومريان، ودورين، وكليانت

دُورين : أرجوك أن تبادر الى إسعافها، يا سيدي. فالألم يحزّ في نفسها. والإتّفاق الذي صمّم الأب على تنفيذه هذا المساء يجعل موضوع قنوطها يزداد تأزّماً في كل لحظة، ولن يلبث هو أن يأتي الى هنا. فلنستجمع قوانا، ونحاول أن نمنعه من تحقيق رغبته بالقوّة أو بالحيلة. المهمّ أن لا ندعه يرتكب هذه الجناية التي تُضِرّ بنا جميعاً.

المشهد الثالث

أوركون، وأَلْمير، ومريان، وكليانت، ودورين

أُورْكون : كم يسرّني أن أراكم مجتمعين. (لمريان) ها هوذا العقد الذي يتضمّن ما يضحككم، لأنكم تعرفون ما ينطوي عليه من بنود.

مرْيان (جاثيةً على ركبتيها) : أرجوك، يا أبي، بحقّ السماء، وأنت لست غريباً عن تعذيبي، واستحلفك بكل ما من شأنه أن يليّن قلبك، أن تتنازل عن حقوقك الوالديّة هذه المرّة، وتعفيني من وعدي بإطاعتك، وأن لا تجبرني، بحسب واجب الطاعة البنويّة، أن أخضع لهذه الشريعة القاسية الجائرة وأنا أشكو ظلامتي الى العزّة الإلهية من موقفك الصلْب تجاهي في هذه الحياة، رغم أنك علّة وجودي. فلا تجعلْها في نظري تعيسة قاتمة. ولا تدفعني الى اليأس والعذاب بما تفرضه عليّ فرضاً بكل ما أوتيت من حقّ وسلطة.

أُورْكون (وهو على وشك ان يلين) : أُحْزُم أمرك، يا قلبي، ونجِّني من الضعف البشري.

مرْيان : ميلك الى من نُعجَب به لا يضايقني، فسايرْه واعْطِهِ مالك كلّه. واذا لم يَكْفِ أضفْ له أيضاً ما يعود اليّ. فأنا راضية من كل قلبي،

وأتنازل لك عنه. ولكن لا تذهبْ الى حدّ منحه إيّاي كذلك. أرجوك أن تقبل بلجوئي الى الدير مهما قَسَتْ أنظمته وقوانينه الصارمة، فيكون ذلك أهون عليّ من المصير القاتم الذي تدفعني اليه هكذا بهذا الزفاف.

أُورْكون : آه منكِ، ومن الراهبات الماكرات حين يقاومْن رغبة والد مثلي. وقوفاً، يا ابنتي. كلّما كرهتِ قبول هذا العريس، كلما ازداد استحقاقك إياه. عليك أن تروّضي مشاعرك في سبيل هذا القران، ولا توجعي رأسي أكثر مما فعلتِ حتى اليوم.

دُورين : ما هذا الكلام المغلوط ؟ ...

أُورْكون : أسكتي أنتِ، ولا تنبسي ببنت شفة. فأنا امنعك من أن تلفظي حرفاً واحداً آخر في هذا الموضوع الذي لا يعنيك.

كليانْت : إذا سمحت لي باسداء النصح لك، أجبتك ...

أُورْكون : نصائحك، يا أخي، هي أفضل ما في الدنيا، لأنها معقولة وموزونة، وأنا أُقدّرها حقّ قدرها. لكن اسمحْ لي بأن لا أصغي إليها هذه المرة.

أَلْمير (لزوجها أوركون) : بما إني أشاهد ما أراه بوضوح، لم أعدْ أدري ما أقول. إن تصلّبك في رأيك يجعلني أُعجَب بقوّة شخصيّتك. لكني أخشى عليك أن تندم في مستقبل الأيام على ما تُقْدِم عليه اليوم بتسرّع وتشبث به.

أُورْكون : أنا في خدمتكِ، فلا تغترّي. إني أعرف عطفك الخاص على ولدي الطائش الذي يصعب عليك أن تعارضيه وتلوميه في موضوع ما فعله بهذا الرجل المسكين. وقد حافظتِ على هدوئك رغم كل تأثّرك.

أَلْمير : هل يجوز لنا، لمجرّد عاطفة غرامية، أن نتمسّك بحكما الخاطئ الجائر ؟ نحن لا يسوغ لنا أن نقبل كل ما يخطر ببالنا كتفكير سليم. فنحكم على بريق العينين والبوح بطرف اللسان بأنها نابعة من أعماق القلب. أنا لا يهمّني هذا الموضوع الذي أزدري به، وهذه الحالة لا تُعجبني أبداً. بل أفضِّل أن أُظهر بعض الحكمة والتروّي، ولا أوافق مطلقاً على هذه التحفّظات القاسية. لأن حججنا أحياناً لا تخلو من التجريح بالبراثن والأنياب الحادّة، ونحن لا نحجم عن مجابهة الأشخاص الأبرياء. وقانا الله من مثل هذه الحكمة الجائرة. فأنا أميل الى الفضيلة البعيدة عن قبضة إبليس، وأعتقد

أنّ رفضاً مبطّناً بالبرود ليس أقلّ قسوة لترويض قلبٍ تيّمه الهوى.

أوزْكون : أخيراً فهمت لبّ القضيّة، وبتُّ أبحث عن حلّ عادل.

ألْمير : لا أزال معجبة بتصرّفك الفريد نوعاً ما. ولكن ما العمل إذا كنت قليل الأمانة صعب التصديق. لا بدّ لي من أن أثبت لك أني لا أقول سوى الحقّ.

أوزْكون : سنرى.

ألْمير : أجل.

أوزْكون : قصّتك عجيبة.

ألْمير : ما قولك إن وجدت سبيلاً للكشف عن الواقع بنور الحقيقة ؟.

أوزْكون : هذه أضغاثُ أحلام.

ألْمير : أي صنف من الرجال أنتَ ؟ على الأقلّ، ردّ عليّ بجواب مُقْنع. أنا لا أطالبك بتعديل موقفك، بل أسألك أن تعتبر من باب الانسانية أننا نسهّل لك رؤية الأمور بجلاء، وسماع الكلام على علاّته. فما قولك في رجلِ الخير الذي تتشبّث بإكرامه عبثاً وتُصرّ على مصاهرته.

أوزْكون : في هذا الوضع، أقول ... لن أقول كلمة. لأن هذا غير ممكن.

ألْمير : الغلط طال أمَده، وأصبح الشك بكلامي جناية لا تُغتَفر. ولا بدّ لي من أن أذهب الى أبعد حدود المستطاع، لأثبت لك صحّة ما أقول، مدعوماً بشهادة دامغة.

أوزْكون : ليكن ما تريدين. وسأحاسبكِ على كل ما تتلفّظين به حساباً عسيراً. وسأرى مهارتك ودقّة وفائك بوعودك.

ألْمير : أُجلبْ صاحبك الى هنا.

دُورين : إنه خبيث محتال، وإذا فوجئ لا يتأخّر عن الأذى.

ألْمير : لا، لا. نحن غالباً ما ننخدع راضين بما نحبّ ونفضّل. ما دامت عزّة النفس تحمل الانسان على التشبُّث بما أنخدع به في أغلب الأحيان. هيا أنزلا هذا الشخص الى هنا (تخاطب كليانت ومريان). ثم إنسحبا من هذا المكان فوراً.

المشهد الرابع
ألْمير، وأورْكون

ألْمير : قرِّبْ هذه الطاولة، واختبئ تحتها.
أورْكون : لأي سبب ؟.
ألْمير : تواريكَ أمر هامّ وضروري.
أورْكون : لماذا تحت هذه الطاولة ؟.
ألْمير : يا الهي. دعني أتصرّف كما أشاء. ففي رأسي خطّة بارعة، لن تلبث أن تلمس مفعولها العجيب. ضع نفسك هنا كما أطلب منك. وحين تختبئ إحرصْ على أن لا يبصرك ولا يسمعك أحد.
أورْكون : إعترفي بأنّ مسايرتي هنا تتعدّى كل الحدود. غير أني أودّ أن أعرف ما سيؤول اليه تدبيرك هذا الغريب.
ألْمير : أعتقد أنك في غنى عن التعليق. (تخاطب زوجها المختبئ تحت الطاولة) : على الأقلّ سأعالج موضوعاً فريداً. فلا تتشكّكْ بشكل من الأشكال. ومهما قلت أنا، لا تعارضْني مطلقاً، لأني أقصد إقناعك، كما وعدتك، وأنوي أن أنزع القناع عن وجه هذا المرائي الدجّال. وسأبيّن لك نواياه الخبيثة الوقحة، بإطلاق سراح أفكاره الجهنميّة من عقالها. وكل ذلك، لأظهره لك على حقيقته البشعة. وأنا مستعدّة لإيقاف مسعاي حالما تُسلّم بصحة وجهة نظري. لأن المطلوب منك أن تفضح خداعه حين تلمس أن المراوغة تجاوزت حدّها. فتنقذ مصير ابنتك الصبية البريئة، ولا تُعرّضني أنا زوجتك إلى ما لا بدّ من تحاشيه من إغراء هذا المسخ الغدّار. فهذه مصلحتك، وأنت مسؤول وحدك عن سلامتنا وكرامتنا. وإذا ... أشاهد هناك شخصاً قادماً إلينا. فتهيأْ، وإياك أن تدعه يشعر بوجودك.

المشهد الخامس

ترتوف، وألمير، وأوركون

تَرْتوف : قيل لي إنكِ تودّين محادثتي في هذا المكان.

أَلْمير : نعم، لديّ أسرار أُريد أن أكشفها لك. فأغلق هذا الباب، قبل أن أبدأ بسردها، وانظر الى كلّ الجهات خشية أن يفاجئنا أحد. لأن القضية، كما حدثت منذ برهة، ليست حتماً من صالحنا. فعلينا أن نحذر كل مباغتة، ما دام داميس قد أسمعني بخصوصك أقوالاً مريعة للغاية. وأنت رأيت بأمّ عينك كيف بذلت أنا أقصى جهودك لمعارضة فكرته، وتخفيف حدّة عواطفه. لقد اضطربتُ قليلاً، ولكني بعون الله ما لبثت أن امتلكتُ أعصابي، بدون أن أتوصّل الى تكذيبه، فسارت الأمور بصورة آمن. والفضل يعود الى ما نكنّه لك جميعنا من التقدير الذي بدّد الغيوم المتلبّدة في الجو المنذر بالعاصفة، لا سيما أن زوجي لا يسعه أن يحمل لك في صدره أية ضغينة. ولكي نجابه الأقاويل المشكّكة بحقنا، شاءت الظروف أن نكون معاً باستمرار في معظم الأوقات. وهذا شجّعني بدون أن أخشى أية ملامة، على المجيء الى هنا وحدي، وعلى الإنفراد بك بكل أمان، وأتاح لي الفرصة لأكشف لك مكنونات صدري وأن أتعرّض ربما لحرارة عواطفك المحرقة.

تَرْتوف : لهجتك هذه يصعب تفسيرها، يا سيدتي، لأنك منذ فترة كنت تتكلّمين بأسلوب مغاير.

أَلْمير : اذا أغضبك رفضي، فهذا دليل على أنكَ لا تفهم كنْه قلب المرأة على حقيقته، وأنك لا تدرك جيداً ما تقصده من وراء تلميحها حين تدافع، وإن بضعف، عن كرامة عواطفها. ولا يغربْ عن بالك أننا نحن الجنس اللطيف نقاوم بحيائنا المعهود، من يهاجمنا في مثل هذه المواقف، ومن يرشقنا بسهام الحب الذي يهيمن على كياننا مع اننا نعترف بأننا نشعر بادئ ذي بدء ببعض الخجل والتردّد، ولكن حيال الإلحاح، لا نلبث أن نرمي سرحنا ونستسلم راضين. وخلافاً لما ينطوي به لساننا من تمنّع سطحي فإن رفضنا يعني في أغلب الأحيان تنازلاً غير مشروط. وبما أن الموضوع

أضحى بحكم المنتهي، أفَلاَ يدل ذلك على أني لست مرتبطة بمشيئة داميس. أرجوك أن تُصْدقني أوَلَم يكن لطفاً منّي أن أُصغي الى نداء قلبك، طبعاً لأن مناجاتك قد أُسرت فؤادي. وعندما أَلْحَحْتُ أنا عليك لترفض الزواج المرتقب كما أُعْلِنَ عنه، أَوَلَيْسَ ذلك من طرفي تحريضاً على حلّ عقدتنا المستعصية بهذه الطريقة، يعني أن إعتاق قلبك من حب غيري يعبّر عن أغلى أُمنياتي بأن أحتكر هواك أنا وحدي.

تَرْتوف : هذا، يا سيدتي، فائض من مودّتك، وسماعي هذا الكلام العذب من شفتيك، يسيل كالعسل من .فمك الحلو، وكالرحيق ينتشي به شوقي اليك، وكالبلسم يشفي جراح هيامي الذي طالت أيام عذابه. فسعادتي تكمن في نيل رضاكِ، وقلبي لا يبتهج إلّا بفرحة لقائك، وها هو يستجدي منك هنا بعض الحرية ليجرؤ أن يرجو، ولو قليلاً، إكتمال هنائه. فأنا أعتبر عباراتك تدبيراً لطيفاً لحملي على العدول عن زواج وشيك. وإذا تسنّى لي أن أصارحك بمنتهى الوضوح، لا أتردّد عن القول لك إني لا أثق كثيراً بمجاملتك البارعة المبطّنة التي تعطيني من طرف لسانك حلاوة وتروغ مني كما يروغ الثعلب.

أَلْمير (تسعل لتنبّه زوجها) : ماذا تقول ؟ هل تريد أن تستنفد عواطفي الرقيقة بسرعة ؟ لقد بحت لك بأعزّ مشاعري، وأنت لا تجدها كافية لتُرضي غرورك، وتريد أن تُحرج موقفي لتستغلّ ميولي واشواقي.

تَرْتوف : كلّما قلّ استحقاق الانسان عطف محبوبه، كلّما قلّتْ جرأته في أمل الحصول على وصاله. وكم من إلْتماس رجوناه وصعب علينا تأمينه. وكم ظننا كسْب الودّ سهلاً فخابت آمالنا، وكم ضَمِنّا قطاف المتعة قبل اليقين بنضوجها. هكذا أنا الذي خلْتُ نفسي أستحقّ طيبة قلبك بتُّ أشك بسعادة، ظننتها وهميةً لأني لم أتمكّن من إقناعكِ، يا سيدتي، بصدق محبّتي.

أَلْمير : يا الهي. ما أقسى هواك الذي يجابهني باستبداد، وما أفظع القلق الغريب الذي يلفّ به روحي. فهو يريد أن يفرض عليّ سلطانه، وبالعنف يصرّ على بلوغ أمانيه، الى حدّ أنك لا تَدَعُني أتنفّس الصعداء، بل تطوّق امكاناتي، وتحجز حرّيتي، وتتمادى في استغلال ضعفي للوصول الى مآربك.

تَرْتوف : إن كنتِ حقاً بعين الحذر والنفور تنظرين الى مكارمي، لماذا

تحولين دون إفساح المجال أمامي لأثبت لك صدق عزيمتي.

ألْمير : كيف تسألني أن أوافق على مطلبك، بدون أن أُغيظ السماء التي لا تغفل عن تذكيري بشرائعها المقدّسة ؟.

تَرْتوف : لو كنتِ تتمسّكين بمشيئة السماء لمعارضة رغباتي، فإن تجاوزها ليس بالامر الهامّ العسير في نظري. وهذا لا يجيز لفؤادك أن تحبسي هواه عني.

ألْمير : مهْلا، مهْلاً. تذكّر ما تُهددنا به السماء من عقاب إنْ خالفنا وصاياها.

تَرْتوف : أنا قادر على تبديد مخاوفك الواهية، يا سيدتي. وكذلك أنا بارع في إسكات تبكيت ضميرك، رغم بعض المحرّمات التي تشيرين اليها. فهناك دوماً تمهيدات تسهّل الأمور ولا تعسّرها، وحسب الحاجات توجد وسائل علمية لتوسيع نطاق الضمائر وتقليص شرّ القبائح، بفضل حسن النيّة وصلاح القصد. وانطلاقاً من هذه الاسرار الخفية عن معظم البشر، يا سيدتي، يمكنني أن أزوّدك بتوجيهات شيّقة تستطيعين أنت بمفردك تطبيقها. فما عليك إلّا مراضاة خاطري بدون تردّد أو وَجَل. وأنا المسؤول عن العواقب بتحمُّلي وحدي سوء المصير. ولكن ما لك تسعلين هكذا بشدّة، يا سيدتي ؟.

ألْمير : وطأة الظروف تضايقني.

تَرْتوف : هلاَّ تناولت جرعةً من نقيع السوس هذا ؟.

ألْمير : سُعالي من النوع المستعصي، وأنا واثقة بأن سوس الدنيا كلها لن يشفي غليلي.

تَرْتوف : هذا حقًّا مزعج.

ألْمير : أكثر مما تتصوّره.

تَرْتوف : إعلمي أن من الهيّن تهدئة ضميركِ. فكوني هنا بأمان واطمئنان لأن لا أحد يعلم بوجودك معي. واعرفي أن فداحة الذنْب تكمن في اذاعته على الملأ، وان الفضيحة بين الناس هي نتيجة الإعلان عن الإثم، اذ ليس من خطيئة ظاهرة عندما تظلّ سرًّا دفيناً.

ألْمير (بعدما سعلت مرة أخرى) : أخيراً أرى من الأنسب أن أساير، وأن أقبل بمنحك ما تلتمسه مني، وأن لا أظنّ سوءاً باستسلامي اليك، ما دامت

الغاية جنْي بعض المتعة. لا شكّ في أن هناك محاذير بتعدّي الحدود. غير أن الربح على قدر المشقّة، وليس من هناء بدون عناء، كما أن دون قطف الوردة لا بدّ من تحمُّل ألم أشواكها. فما علينا إلّا الرضوخ الى نصيبنا. وبما أن الموافقة تتضمّن بعض الذنب، فالمسؤولية تقع على من يدفع الى العصيان، ولا سبيل الى تلبّسي أنا بهذا الجرم.

تَرْتوف : اجل، يا سيدتي، سأتحمّل الوزر وحدي، والقضية في جوهرها ...

أَلْمير : أرجوك أن تفتح الباب قليلاً، لنرى إن كان زوجي يتمشّى في هذا الرُواق.

تَرْتوف : لا حاجة للمبالاة به. فهو رجل، والقول فيما بيننا، يُقاد من أرنبة انفه. فكل أحاديثنا لا علاقة له بها، وأنا قد أَسقَطْتُه من جميع حساباتي.

أَلْمير : مع ذلك، أرجوك أن تطلّ لحظة وتلقي نظرة على ما يجري في جوارنا.

المشهد السادس

أوركون، وألمير

اوركون (يخرج من تحت الطاولة) : في الحقيقة هذا الدجال بلغ أقاصي الخِسّة والدناءة، وتصرفاته مزعجة للغاية.

أَلْمير : ماذا فعلت ؟ لماذا خرجت قبل الأوان ؟ هل تسخر مني ؟ هيا عُدْ الى مكانك، لأن وقت ظهورك لم يَحُن بعد. وعليك أن تنتظر أيضاً قليلاً حتى تبين الأمور بوضوح تامّ، ولا تتكل على الظواهر.

أُورْكون : لا، لا. لم يُفلِت من زبانية الجحيم شيطان أدهى من هذا اللعين.

أَلْمير : يا الهي. أتدري أن استعجالك خفّةٌ تُضيع علينا الفرصة لفضح نواياه الخبيثة. دعنا نقتنع كليّا بسوء مآربه، ولا تَستبق الأمور، خشية أن يبوء مسعانا بالفشل.

المشهد السابع

ترتوف، وألمير، وأوركون

تَرْتوف : كل ما حدث الى الآن، يا سيدتي، يساهم بنجاحنا الباهر. لقد أجَلْتُ بصري في الجناح برمّته، فلم أجد أحداً، وأنا مطمئنّ البال.

أُورْكون (وهو يوقفه) : مهلاً، أنت تتسرّع في الجري وراء أهوائك الغرامية. عليك أن تلجم أشواقك الدنيئة الآثمة. آهٍ منك، يا رجل الخير والصلاح. كم كنا مغرورين بتزمُّتك، وكم أنت سافل في انسياقك وراء شهواتك المنحطّة. كنت تُلحّ على الإقتران عاجلاً بابنتي. وها أنت تراود زوجتي عن نفسها وتحاول اغراءها بكل الوسائل. لقد خامرني الشك طويلاً بسوء نواياك، وها قد سقط القناع عن وجهك الذميم. لقد اعتقدتُ فترةً أنّ بالإمكان أن تصطلح أحوالك وأن تتغيّر لهجة أحاديثك المبطّنة بالغش والخداع. ولكن الظروف برهنت في هذه اللحظة على أن ظنوني في محلّها. فلم أعد أطيق صبراً على نفاقك ودجلك اكثر مما فعلتُ حتى الآن.

أَلْمير (لترتوف) : هذا ما لم أشك في حصوله. وقد أقدمت أنا على هذه الوسيلة لفضح خداعك واحتيالك، أيها الدجّال اللئيم.

تَرْتوف : ماذا تقولين ؟ هل تعتقدين ؟ ...

أُورْكون : هيّا، هيّا. أرجوك أن لا ترفع صوتك وتضجّ هكذا. فقد ذاب الثلج وبان المرْج. ولا سبيل الى تبرير نذالة سلوكك وإجرامك.

ترتوف : نيّتي ...

أُورْكون : لم يعد من نفع لتكرار خطاباتك الرنّانة. عليك أن تغادر هذا البيت بدون تأخير لحظةً واحدة.

تَرْتوف : بل عليك أنتَ أن تخرج، يا مدّعي السيادة. فهذا البيت يخصني كما سأثبت لك ذلك، وسأبرهن لك أن كلامك باطل، وأنك عبثاً تحاول مشاجرتي وإهانتي بدون أي حقّ. إذْ لديّ ما يؤكّد تطاولك عليّ وتحقيري بدون سبب. وستندم على موقفك هذا الغبي في طلبك اليّ أن أخرج أنا من بيتي هذا.

المشهد الثامن

ألمير، وأوركون

أَلْمير : ما هذه اللجهة الجديدة ؟ وماذا يقصد بهذا الكلام الغريب ؟.
أُورْكون : في الحقيقة أنا مخجول، ولا سبيل لي الى مناقشته.
أَلْمير : لماذا تقول ذلك ؟.
أُورْكون : لقد انتبهتُ الآن الى غلطتي الفظيعة من خلال أقواله. وها هي هبتي تجرّ عليّ الويلات.
أَلْمير : أية هبة ؟.
أُورْكون : نعم، هذا هو الأمر الواقع. وهناك مسألة أخرى تُقلق بالي.
أَلْمير : ما هي ؟.
أُورْكون : ستعرفين كل ما جرى. علينا الآن أن نتأكّد من أن صندوقاً يخصّني لا يزال موجوداً في مكانه فوق.

الفصل الخامس

المشهد الأول

أوركون، وكليانت

كليانْت : الى أين أنت مسرع هكذا ؟.

أُورْكون : أنا الآن مرهق، ولست أدري.

كليانْت : يُخيّل اليّ أن القضية بلغت حدّاً يُلزمنا بالتشاور معاً. لأن الأمور تعقّدت بعد هذا التصادم.

أُورْكون : الصندوق يشغل بالي اكثر من كل باقي المشاكل التي تبعث على القلق والقنوط.

كليانْت : ألهذا الصندوق إذاً كل هذه الأهمية الكبيرة ؟.

أُورْكون : هو وديعة عندي يخصّ صديقي « أرْكاس » الذي أُرثى لحاله، وضعها هو بذاته بين يديّ في سرّيّةٍ تامة. لأنه قبل هَرَبه قد اخترانى اميناً على ما يتضمّنه من اوراق جوهرية، كما قال لي، تتعلّق بها حياته وامواله.

كليانْت : ولماذا تركها في حَوْزتك، ولم يحتفظ هو بها.

أُورْكون : أعتقد أن دافعه هو تخليص ذمّته، إذ صرّح لي بأنه على وشك افتضاح أمره حيال من خان عهده. وقد اقنعتْني حجّته بتسليمي هذا الصندوق لأخبئه له عندي. حتى اذا اقتضى الأمر، وجرى تحقيق في موضوعه، يكون لديّ مهرب وسبب جاهز، كي يظلّ ضميري مرتاحاً بأمان، ولو أقسمتُ زوراً بخلاف الواقع.

كليانْت : أنت في مأزق حرج على ما يبدو لي. والهِبَة، وهذه الثقة ما هي كما ينبئني إحساس إلاّ تدبير استَنْبَطْتَه أنت على عجل، وقد يودي بك استهتارك بعيداً، وهذه الوديعة بين يديك عبء ثقيل عليك. فالرجل تخلّص من وقرها ودفعها إليك، فقَبِلْتَها بتسرّع وقلّة تبصّر. وأضحى الآن من المحتّم عليك أن تجد بهدوءٍ مناصاً ينقذك من هذه الورطة الوبيلة.

أُورْكون : ما قولك ؟ هل تعتقد أن وراء حُسْن المظهر المؤثّر، يخفي هذا الرجل شخصيّة غامضة مزدوجة، ونفْساً شرّيرة ؟ وأنا قد أمّنت له حاجته بغباء ولم ... لقد قُضي الأمر، وقرّرت أن لا أثق بكل رجال الخير، وبتّ اكره التعاطي معهم، ومن الآن وصاعداً سأكون لهم شيطاناً رجيماً.

كليانْت : هدّئْ روعك، وخفّفْ حدّة غضبك. عليك أن تحتفظ بصفاء ذهنك. فأنت الآن تلمس فداحة غلطك، وتعترف بتسرّعك في وثوقك الذي جاء بغير محله. ولكي تصلح خطأك تكاد تقع في غلط أفظع منه. ورُحْتَ تخلط بين نوايا الرجال الصالحين ونذالة الوغد اللئيم، وتخبط في هذا المجال خبط عشواء. ولأجل محتال سافل غَدَرَ بك وغشّك بحجةٍ ظاهرها بريء وباطنها سبحان العليم، أخذتَ تشكّ بكل الناس وتعتقد أنهم كلهم على شاكلته، وأنّ الكون أصبح خالياً من الاتقياء الاوفياء، يعجّ بالاشقياء المجرمين. دَعْ للرعاع الأغبياء مثل هذه الحماقات، وأَعِدْ ثقتك الى أصحاب الفضيلة الذين يستحقّون عليك أن لا تُهين الخيّرين الشرفاء. وإذا وَقَعْتَ بين النقيضَيْن لا بدّ لك من أن تميل الى جهة الأصلح.

المشهد الثاني

داميس، وأوركون، وكليانت

داميس : ما بك يا أبي ؟ هل حقًّا أنت معرّض لتهديد أحدِ الخبثاء الغادرين ؟ لا بدّ من ردّ كيده الى نحره، ومنعه من ابتزازك واستغلالك.

أُورْكون : نعم، يا ابني، يؤسفني أن أكون في وضع لا أُحْسَد عليه.

داميس : دعني أقطع لسان الجاني. ولقاء وقاحته ألقّنه درساً قاسياً لا ينساه مدى العمر. إتّكل عليّ، فأنا على أتمّ الاستعداد لإنقاذك من براثن هذه المحنة، ولكي أقطع دابر الشرّ سأعرف كيف أقضي عليه وأقتلعه من جذوره.
أورْكون : هذا كلامُ بطل تُرجى منه عظائم الأمور. لكن، أرجوك أن تهوّن على نفسك وتخفّف حماسك للاقتصاص من المعتدي. فنحن الآن نعيش في عصر مسالم لا يلائم فيه اللجوء الى العنف لفض المشاكل، إذْ لا خير من مداواة الشر بالشرّ.

المشهد الثالث

السيدة برنـال، ومريـان، وألْميـر، ودوريـن، وداميس، وأوركـون، وكليانت

السيدة بَرْنال : ما الامر ؟ لقد بلغتني أنباء مزعجة غامضة.
أورْكون : هذه في الحقيقة مشاكل جديدة، تبصرها عيناي وتسمعها أذناي لأوّل مرة. وسيكلّفني حلّها باهظاً جداً. فلقد استضفت رجلاً وأصغيت الى شكواه، واعتبرته كأخ محبّ، وحاولت أن أواسي لهفته، وأن أُسدي اليه جميلاً، فوعدته بتفريج كربته وبتزويجه ابنتي ومنحه كل ارزاقي. لكنه ما لبث أن تجلّى على حقيقته. واذا به غدّار لئيم ومحتال خسيس، حتى أنه حاول أن يغرّر بأمرأتي أيضاً. ولم يكفه ما يضمره من غشّ وخداع وابتزاز فهدّدني بالويلات مستغلاً طيبة قلبي كي يضعني في المأزق الذي صدّقته وحاولت انتشاله منه.
دُورين : مسكين أنت.
السيدة بَرْنال : لا يمكنني أن أصدّق أن هذا المغلوب على أمره لا يتورّع عن إتيان عمل نذلٍ كهذا.
أورْكون : ماذا تقولين ؟.
السيدة بَرْنال : كم أرقّ لحال رجال الخير المحسودين والمتّهمين زوراً على الدوام.

أوزْكون : ماذا تقصدين بقولك هذا، يا أمّاه ؟.
السيدة بَرْنال : أعني أن الحياة غزيبة في وسطكم، وأن الحقد ليس له من حدود.
أوزْكون : وما دخل الحقد في ما نحن الآن بصدده ؟.
السيدة بَرْنال : لقد أكّدت لكم ألْف مرة عندما كنتم صغاراً أنّ لا كرامة للفضيلة في فوضى هذه الدنيا، وأن الحسّاد يموتون كمداً ويبقى الحسد على الدوام.
أوزْكون : وما علاقة هذا الكلام بما حدث الآن ؟.
السيدة بَرْنال : سيُخلَق لكم ألْف قصة من هذا النوع إن بقيتم مغفّلين.
أوزْكون : كررت عليك مراراً إني شاهدت العجب بأم عيني.
السيدة بَرْنال : ليس من قرارٍ لأذى نميمة أهل الشر والفساد التي تشبه اللجج الطاغية.
أوزْكون : أنت تظلمينني، يا أمّي. قلت لك وأعيد عليك أني أبصرت الجرم الفظيع بأم العين.
السيدة بَرْنال : ألْسِنَة السوء مشبعة بالسمّ الزعاف تنفثه في كل زمان ومكان على هذه الأرض الواسعة، وليس من السهل تحاشيها.
أوزْكون : هذا حديث لا طائل تحته. قلت لك وأقول وسأقول إني أبصرت الأذى بأمّ عيني ولمسته لمس اليد. ولن أكفّ عن ترديده على الملأ الى ما لا نهاية له.
السيدة بَرْنال : يا الهي. ألا تعلم، يا ولدي، أن الظواهر خدّاعة، وأنّ على الرجل العاقل أن لا يحكم في أي أمر على ما يرى ويسمع فقط.
أوزْكون : أكاد أجنّ.
السيدة بَرْنال : طبيعة الانسان ميّالة الى الشكّ، وأنت تكاد لا تصدّق ما يظهر للعيان من خير وصلاح.
أوزْكون : لا بدّ لتفسير الإصرار على وجود النوايا الطيبة من أن أُلبّي رغبتي في تصديق زوجتي.
السيدة بَرْنال : ولا بدّ من حجج دامغة لإلقاء التهم على الناس، وعليك

أنت أن تنتظر جلاء الامور لاصدار حكمك النهائي.
أوزْكون : ربّاه، كيف يتسنّى لي أن أجد السبيل الى التأكُّد كما يجب. عليّ اذاً، يا امي، ان انتظر حتى تبدو الحقيقة ناصعة لعينيَّ. وهكذا ... تضطرينني الى قول بعض الحماقات.
السيدة بَرْنال : أخيراً، أراك متشوّقاً الى القيام بعمل جليل، ولا يسعني أن أتصوّر أنك تصبو الى محاولة إثبات ما قد قيل.
أوزْكون : لست أدري، لو لم تكوني والدتي، بماذا كنت رشقتك، وأنا في فورة غضبي.
السيدة بَرْنال : الأمر عادي وبسيط للغاية في هذه الدنيا. أنت لا تصدّق ما يقوله غيرك، وسواك لا يصدّق ما تصرّح به أنت.
كليانْت : ترانا نضيع وقتنا الثمين في مماحكات تافهة. بينما يجدر بنا أخذ الاحتياطات لردّ التهديدات الخبيثة التي يتحتّم علينا أن لا نغفل عن توقعها وننام على حرير تجاهلها.
داميس : ما هذا الكلام ؟ هل بلغت الوقاحة بصاحبنا الدجّال الى هذا الحدّ ؟.
ألْمير : أنا لا أعتقد أننا سنصل الى الطريق المسدود. فان جحوده هنا بارز للعيان.
كليانْت : جانبه غير مأمون. وسيكون له ردّات فعل عنيفة ويحاول زوراً أن يثبت أنّ الحق معه في ما يبذله من جهود. أكرر عليكم : بما أن لديه سلاحاً فتّاكاً يجمل بكم أن لا تدفعوه الى إشهاره عليكم.
أوزْكون : هذا صحيح. ولكن ما العمل ؟ الآن أشعر بأني لم أكن على مستوى درء أذى هذا الشرير الغدار عني.
كليانْت : كم أودّ من كل قلبي أن أتوصّل الى تضييق شقة الخلاف بينكما، وإجراء مصالحة شاملة ليسود الوئام علاقاتكما.
ألْمير : لو علمت بأن في يده مثل هذا السلاح الجارح، لما كنت أوصلت النزاع الى هذه الهاوية السحيقة. وأنا ...
أوزْكون : ماذا يريد هذا الرجل بالضبط ؟ لا بدّ لنا من أن نعرف الحقيقة. فأنا مستعد لقبول كل تسوية.

الفصل السادس

المشهد الأول

السيدة لويّال، والسيدة برنال، وأوركون، وداميس، ومريان، ودورين، وألمير، وكليانت

السيد لويّال : نهاركِ سعيد، يا اختي العزيزة. أرجوك أن تدعيني أكلّم هذا السيّد.

دُورين : هو ليس وحده، وأشكّ بأن يتمكّن الآن من مقابلة أي شخص.

السيد لويّال : أنا لست دخيلاً على هذه القضية، وأثق بأن وساطتي لن تزعجه، على ما أرى. فالموضع الذي أنوي أن أطرقه سيرضيه كل الرضى.

دُورين : ما اسمك ؟.

السيد لويّال : قولي له فقط اني آتي من قِبَل السيد ترتوف لأجْل حلّ هو حتماً من صالحه.

دُورين : هذا الرجل يأتي بصورة لطيفة من قِبَل السيد ترتوف، ليفاتحك بمسألة ترضيك، كما يقول.

كليانْت : عليك أن تتبيّني من هو هذا الرجل، وماذا يريد تماماً.

أُورْكون : ربما أتى لكي يصالحنا. فكيف يجب عليّ أن أبدو له ؟.

كليانْت : لا بدّ لك من كظم غيظك، ومحادثته بلهجة الوفاق، والإصغاء الى ما سيعرضه عليك.

السيد لويّال : نهارك سعيد، يا سيدي، لا غَفِلَتِ السماء عمّن يريد اذاك، وحقّقتْ لك أعز أمنياتك.
أُوزْكون : بدء كلامك ينطبق على توقّعي الحكيم. وأظنه مقدّمة للوصول الى الإتّفاق المنشود.
السيد لويّال : أُسْرتك منذ القدم كانت، ولا تزال عزيزة عليّ، فقد أمضيت عمري في خدمة سيدي والدك الوقور.
أُوزْكون : أسألك العفو. لقد أخجلتني بوفرة تواضعك، وأنا استحي من عدم معرفة اسمك، فهل يمكن أن تذكره لي ؟.
السيد لويّال : أنا أُدْعَى لويّال، مسالم من مقاطعة نورْمَنْدي، وظيفتي حاجب وأمسك بعكاز، رغم أنف كل حاسد. ومنذ أربعين عاماً أمارس مهنتي باعتزاز. وآتي الآن اليك، يا سيدي، عن اذنْك، لأبلغك قراراً ما ....
أُوزْكون : ماذا تقول ؟ أنت هنا لِكَيْ ...
السيد لويّال : يا سيدي، لا تَحْتَدّ. هذا ليس سوى إنذار، بل إذا شئت، أمر موجّه اليك والى أفراد أسرتك بإخلاء هذا المكان. ستضع مفروشاتك خارجاً وتسمح لغيرك بأن يسكن هذا العقار بدون إمهال أو تأجيل حسب مقتضى الحال ...
أُوزْكون : أأنا أخرج من هنا ؟.
السيد لويّال : نعم، يا سيدي، من فضلك. فهذا المسكن أضحى حالياً كما تعلم، مُلْك السيد ترتوف، يخصّه بلا منازع. وقد أصبح صاحب أملاكك وسيّدها المطلق بموجب عقد هو بحوزتي، كامل النصّ بالشكل والأساس، وليس عليه قانونًا أي غبار أو ما يُقال.
داميس : لا سبيل للنكران أن هذه وقاحة لم يسبقها مثيل، وإنْ أُعجبتُ بجسارتها.
السيد لويّال : يا سيدي، أنا لم يعد لي شأن معك. فهذا الشخص بالغ راشد وعاقل لطيف. وهو كملاّك سابق مطّلع على هذه الإجراءات، وليس بحاجة الى الإعتراض على أنظمة العدالة.
أُوزْكون : ولكن ...

السيد لويّال : نعم، يا سيدي، أنا عارف أنك لأجل مليون لست مستعدًّا للمعارضة أو للتمرّد على قرار المحكمة. لذا أنا مقتنع بأنك ستتيح لي المجال لتنفيذ الأوامر الصادرة اليّ.

داميس : يمكن، يا سيدي الحاجب، صاحب العكّاز، أن تتباهى وتعتزّ ببزّتك السوداء.

السيد لويّال : أطلب، يا سيدي، من ولدك أن يسكت أو أن ينسحب. وإلاّ إضطرزت الى تنظيم محضر مخالفة بحقّك وبحقّه.

دُورين : أرى أن السيد لويّال ينوي إثارة المتاعب.

السيد لويّال : أنا أحترم جميع الناس المسالمين، ولم آتِ الى هنا إلاّ لإبلاغكم بدون إزعاج، ما أحمله من أحكامٍ مبرمة. فما عليكم إلاّ أن تواجهوها بحسن القبول، وأن لا تجبروني على ...

أُورْكون : وما هو الإجراء الأدهى من أن تطلب من الناس أن يُخْلوا بيوتهم ؟.

السيد لويّال : لقد حدّدت لكم، يا سيدي، مهلة التنفيذ حتى الغد. وسآتي لأُمضي الليلة هنا مع عشرة من رجالي بدون إثارة فضيحة أو شغب. ويتحتّم عليكم شكليًّا قبل أن تناموا أن تسلّموني مفاتيحِ باب داركم. وعليّ أن لا أُقلق راحتكم. ولكن منذ صباح الغد عليكم أن تبادروا الى مغادرة المكان بعد إفراغه من كل الادوات المنزلية. سيساعدكم رجالي على إنجاز .ذا العمل وإخراج كل المحتويات. وكونوا على يقين بأن ليس بالإمكان لأي كان أن يتصرّف بطريقة أفضل ممّا فعلت أنا. وبما إني أعاملكم بأقصى التساهل، أرجوك، يا سيدي، أن تُحسِن التصرّف أنت أيضاً، وأن لا تُخِلّ بإجراء اللازم في تنفيذ مهمتي كما يجب.

أُورْكون : بكل طيبة خاطر سأناولك فوراً مئة ليرة ذهبية، لم يبقَ لديّ سواها كي تُدخل السرور الى قلبي بلطمك هذا الرجل الفظّ لطمةً يتذكّرها طوال عمره.

كليانْت : دَعْكَ من هذه الفكرة الصبيانية، ولا تشوّه عدالة القضية.

داميس : ازاء هذه الجسارة، أكاد أضبط أعصابي، وأشعر بأن يدي تحكّني لأُنزل ضربة تقصم ظهر المعتدي.

دُورين : بمثل هذه القامة الضخمة، أيها السيد لويّال، أعتقد أن كم ضربة قضيب لن تكون ضائعة فيه.
السيد لويّال : لا بدّ لكِ من عقاب صارم أنتِ أيضاً على هذا الكلام، يا صديقتي. واعلمي أن المحاكمات تشمل النساء أيضاً.
كليانْت : لنضع حداً لهذه المهزلة. فقد طفح الكيل. ناولْنا هذه الورقة، من فضلك، وارحلْ عنّا بسلام.
السيد لويّال : الى الملتقى، حفظكم الرب.
أورْكون : أسأل المولى أن يهدّ حَيْلك وحَيْل من أرسلك الينا.

المشهد الخامس

أوركون، وكليانت، ومريان، وألمير، والسيدة برنال، ودورين، وداميس

أورْكون : والحالة هذه، يا والدتي، وبما ان الحق الى جانبي، وأنتِ تَرَيْن من الأنسب أن تحكمي على ما تبقّى من هذه المعضلة، فلا بدّ من أن تعترفي بأن دناءته ليس لها من حدود.

السيدة بَرْنال : أنا مندهشة، وقد عراني الذهول.
دُورين : لا فائدة من شكواكم، ولومكم في غير محله. لأن ما جرى قد جرى. ولأن محبّة القريب فضيلة يجهلها كل عقوق. لا شكّ في إن المال يُفسد اخلاق الانسان. وهذا الخصم إكراماً لكم يريد أن يجرّدكم من أملاككم حرصاً على خلاصكم ورفاهكم.
أورْكون : أُسكتي. هذه هي الكلمة التي أُضطر دائماً الى ترديدها لكِ، يا ثرثارة.
كليانْت : هيّا نبحث عن المجلس الإداري الذي علينا أن ننتخبك عضواً فيه.
ألْمير : عليكم أن تثيروا حفيظة الجاحد عديم الانصاف. لأن حديثكم لا

تأثير له في محاولة إبطال مفعول العقد. ومن ثَمّ تظهر رجاسة منظّمة كالغراب الفاحم السواد على رقعة مكسوّة بالثلج الناصع البياض. وعلينا أن لا نرجّح نجاحه في هذه المشكلة أكثر مما نظن.

المشهد السادس

فالير، وأوركون، وكليانت، وألمير، ومريان، وغيرهم .

فالير : يؤسفني، يا سيدي، أن آتي لأزعاجك. غير أني مضطر الى التصرف هكذا، نظراً الى الخطر المحدق بك. هناك صديق تربطني به مودّة متينة، وهو يعلم مدى العلاقة القديمة التي تجمع بيني وبينك. وقد أفشى لي سرًّا مكتوماً وذلك من قبيل الغيرة على معزّتي، وحرصاً على مصالح الدولة، وأبلغني قراراً مضمونه يجبرك على الفرار من وجه العدالة. فالوغد اللئيم الذي ظلّ زمناً طويلاً يمالئك، وَشَى بك منذ ساعة الى الأمير، وسلّمه ملفّك كمجرم دولي، ضمن صندوق له اهميّة كنتَ تحفظه خفيةً، رغم أنه يشكّل خطراً على سلامة الحكومة. أنا أجهل تفاصيل التهمة الموجّهة اليك. غير أني علمت بأن أمراً صدر بحقّك، وأنه هو المكلّف بتنفيذه بمعيّة رجل الأمن الذي سيلقي القبض عليك وشيكاً.

كليانْت : هذه هيه الحقوق التي يدّعيها وتمنحه السلطة على اغتصاب أموالك.

أُورْكون : لا أنكر أنّ هذا المجرم كشف عن حقيقة نفسه، فتبيّن أنه أشرّ فتكاً من الوحوش الضارية.

فالير : وإن تلهيت وأضعت الوقت، إزداد الخطر على حياتك. فها هي عربتي تنتظر خارجاً، ويمكنك أن تستقلّها وتهرب. ولقد اتيتك بألف ليرة ذهبية لتتدبّر أمرك بواسطتها. فلا تُضع الوقت سدىً. الأمر، كما ترى، خطير جداً، وبإمكانك تجنُّب الكارثة بفرارك حالاً، وانتقالك الى مكان آمن. وأنا مستعد لمؤازرتك ومرافقتك الى حيث تشاء.

أُورْكون : لا،لا . أشكرك على ما تقدّمه لي من مساعدة. ولِكَيْ أردّ لك جميلك يلزمني بعض الوقت. فأطلبُ من الله أن يعينني على مبادلتك هذه الخدمة الجليلة. الوداع. أرجوكم أن تأخذوا حذركم أنتم أيضاً ...

كليانْت : اذهب عاجلاً، يا اخي، ونحن هنا نتدبّر أمرنا كما يجب.

الفصل السابع والأخير

رجل الأمن، وترتوف، وفالير، وأوركون، وألْمير، ومريان، وغيرهم

تَرْتوف : مهلاً، يا سيدي، مهلاً؛ ولا تسرع هكذا. لن تذهب بعيداً كي تجد ملجأً؛ ولن تلبث أن تُسْجَنَ بأمر الأمير.

أُورْكون : تبّاً لك من خائن حقير. حفظت لي هذه النهاية التعيسة الى آخر المطاف. هذا ضرب منك يثبت مكرك وانحطاط أخلاقك، وقد توّجْتَ به غدرك الدنيء.

تَرْتوف : إهاناتك لن تفيدك، ولن تؤذيني، لأني معتاد على أمثالها.

كليانْت : أنا أعتقد أنّ الاعتدال خير الحلول.

داميس : كم يهزأ المجرمون بعدالة السماء.

تَرْتوف : مهما بلغ احتداد غيظك لن يؤثّر عليّ. وأنا لا يهمّني إلّا القيام بواجبي.

مرْيان : أنت تظن أن هذا التصرّف يُشرّفك، وأنت بهذا العمل الذي قد جَنَيْتَ أوفر الارباح ماديًّا ومعنويًّا.

تَرْتوف : عملي طبعاً لا يُعتَبَر ناجحاً إلّا إذا تمّمتُه حسب الأصول.

أُورْكون : هل تتذكّر أياديّ البيضاء عليك، يا ناكر الجميل، وكم من معروف اسديت إليك، أيها الجاحد النذل ؟.

تَرْتوف : أجل، لا أزال أتذكّر كم جُدْتَ به عليّ من رعايتك وعونك. غير أن تنفيذ قرار الأمير هو اليوم أوجب واجباتي. وتتميم هذا الواجب

المقدّس يخنق في أعماقي عاطفة عرفان الجميل. وأنا مستعدّ أن أُضحّي في هذا السبيل بصديقي وزوجتي وأهلي، حتى بذاتي أنا أيضاً معهم.

أَلْمير : ما أحقرك من شرّير بغيض.

دُورين : لقد ظهرت أخيراً على جليّتك، أيها المنافق الغدّار، وتبيّن أنك أسفل الأوغاد.

كليانْت : بالأمس كنّا نظنّك الرجل الكريم الغيور على فوز الفضيلة التي كنتَ تدّعيها. حسناً فعل صاحبنا الذي طاوع امرأته لكي تكشف حقيقة خداعك ومُراءاتك، بينما أنت تراوغ وتحاول إغراء زوجته أيضاً. وإذا به يضطر في الآخر الى طردك والتنديد برذائلك. أنا لا أودّ أن أكلّمك عن تنكّرك لواجباتك، وعن احتيالك واستدراج من تدّعي صداقته الى منحك أمواله كهبة، بل أريد أن أحاسبك على اعتبارك إياه مجرماً وعلى مطاردتك اياه بعد أن أكرمك وأهداك ممتلكاته.

تَرْتوف (لضابط الأمن) : أرجوك أن تخلّصني من هذا الصراخ المزعج، وأن تنفّذ الأوامر الصادرة اليك اليوم لإلقاء القبض عليه وإتمام مهمّتك هذه.

ضابط الأمن : أجل، عليّ أن أبادر الى عمل ما جئت لأجله. لذدا، إتبعني حالاً الى السجن الذي أصبح الآن مأواك.

تَرْتوف : من، يا سيدي، أنا ؟.

ضابط الأمن : نعم أنت بذاتك.

تَرْتوف : ولماذا أُسْجَن ؟.

ضابط الأمن : لا حساب لديّ أؤديه لك. (يخاطب أوركون) : تنبّه يا سيدي، من غفلتك. نحن نعيش في ظلّ أمير عادل يكره الغش ويحارب الفساد، أمير يسهر على مصالح رعاياه، ويعاقب المجرمين، ولا يغمض له جفن حتى يردّ لك ذي حقّ حقّه بدون أن يتلهّى بالأباطيل وتنطلي عليه الحِيَل. وحين جاء من يشكوك اليه، كشفه على حقيقته وفضح نواياه العدائية الجانية. لقد عرف هذا العاهل الصالح كيف يتبيّن نذالة خصمك وعقوقه وسائر مساوئه. لأنه دقّق في أوراقك التي كانت بحوزته، والعقد الذي خوّله استملاك أرزاقك. وقد صفح عنك رغم ما وجهه اليك من إتهامات، وحرص على

الاشادة بما بذلته في الماضي من غيرتك، وأيّد حقّك. لانه يتشبث بتأمين الحقّ والعدالة لكل أتباعه المسالمين.

دُورين : الحمد لله الذي قيّض لنا هذا الحاكم النبيه الحكيم.

السيدة بَرْنال : ها أنا الآن أتنفس الصعداء.

أَلْمير : هذا حقًّا نَجاح باهر.

مرْيان : من كان قادراً على إظهار الحقيقة؟.

أُورْكون (يخاطب ترتوف) : هذا هو المجرم البغيض ...

كليانْت : كفّ، يا أخي، عن هذا الحديث التافه، ولا تتدنّى الى هذا المستوى الساذج، واترك هذا الوغد الى مصيره البائس، ولا تشغل بالك بترّهاته. بل أطلب من الله أن يهديه الى الطريق المستقيم، ويقوّم إعوجاجه، ويردّه الى حظيرة الفضيلة. واسأل المولى أن يحمي اميرنا الفاضل ليظل ساهراً على استتباب الأمن والعدل. واذهبْ واجثو على ركبتيك واشكر الرب على ما اولاك من النعم في ظله الوارف.

أُورْكون : أجل، هذا قول سديد. هيا نَمْثُل أمام العزّة الإلهية لنشكر أفضاله، ونبارك اسمه المجيد الكريم. ثم نتمّم واجباتنا نحو عدله ورعايته، ونكلّل أفراحنا بمباركة زواج هذَيْن العريسَيْن، وقد لبّيا نداء قلبيهما كحبيبَيْن عزيزين سعيدين.

(تمّت)